الدائرة المتوسطية

تأصيلات ثقافية واجتماعية وتاريخية

تأليف

دكتور عبد الرحمن الشيخ



هذا الكتاب يضم أربعة أبحاث نشرت فى مجلات أكاديمية محكمة فى فترات متفاوتة، بالإضافة إلى مقدمة وافية تربط هذه الأبحاث الأربعة وتجمعها، والمبحث التمهيدى يبين خصائص الثقافة المتوسطية، ويركز على أن الدائرة المتوسطية فيها كل المكونات الثقافية فى مصر، وأن مصر لا تنتمى إلى البحر المتوسط جغرافيًا فقط، وإنما حضاريًا أيضًا وهذا ألا يتعارض مع انتماء مصر لدوائر أخرى كالدائرة الأفريقية والعربية، والدائرة المتوسطية تحظى باهتمام كبير هذه الأيام.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدائرة المتوسطية

تأصيلات ثقافية واجتماعية وتاريخية

تأليف

دكتور عبد الرحمن الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

الشيخ، عبد الرحمن.
الدائرة المتوسطية: تأصيلات ثقافية واجتماعية وتاريخية/ تأليف: عبد الرحمن الشيخ. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .
١٦٤ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٧ ١٧٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - مصر - الأحوال الثقافية.
٢ - مصر - الأحوال الاجتماعية.
أ - العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٠٠٥ / ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 421 - 174 - 7

ديوى ٣٠١,٢٠٩٦٢

الكتاب: الدائرة المتوسطية تأصيلات ثقافية واجتماعية وتاريخية

المؤلف: دكتور عبد الرحمن الشيخ

طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩ م

الإخراج الفنى والغلاف: صبرى عبد الواحد

خطوط: أوس السنوسى

مُقدِّمة

منذ صدر كتاب «فلسفة الثورة» للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، صدرت دراسات عديدة عن الدائرة الأفريقية باعتبارها دائرة من بين الدوائر التى تنتمى إليها مصر، بل وجرى تأسيس معهد للدراسات السودانية الذى أصبح فيما بعد معهد البحوث والدراسات الأفريقية، التابع لجامعة القاهرة.

وصدرت دراسات عديدة عن الدائرة العربية أو انتماء مصر العربى، وجرى تأسيس أكثر من معهد ومركز أبحاث للوفاء بما تستحقه هذه الدائرة من اهتمام، وكان بعض هذه المعاهد تابعا لجامعة الدول العربية، بالإضافة للتركيز على هذه الدائرة فى أقسام التاريخ والجغرافيا والاجتماع.. فى مختلف كليات الجامعات المصرية وغير المصرية.

أما الدائرة الإسلامية فحظيت هى الأخرى باهتمام ربما كان أكثر من الاهتمام بالدائرتين السابقتين لأنَّ الدائرتين السابقتين تنطويان إلى حد

ما تحتها، ولوجود تجارب تاريخية سابقة كالجامعة الإسلامية مثلا، ومنظمة المؤتمر الإسلامى بعد ذلك، ولأسباب أخرى مختلفة.

أما الدائرة المتوسطيّة والتى نعنى بها ثقافة البحر المتوسط ذات السمات الواضحة فى كثير من الدول والكيانات المطلة عليه، والتى تمتد أحيانا إلى الداخل خاصة على الجانب الأوروبى حتى تعانق جزءًا كبيرا من أوروبا الدّانوبيّة (أوروبا المطلة على نهر الدانوب) فلم تحظ بالاهتمام الكافى، مع أنّ هذه السمات المتوسطية تكاد لا تُغفل عنصرا واحدا من المكوّن الثقافى المصرى، بل ويبدا لبعض الوقت أنّ هذه الدائرة ربما كانت ملاذًا للتمسك بالهوية المصرية العربية الإسلامية الممتزجة بالتقدم العلمى والمشرَّبة بالتسامح الدينى، أكثر من دوائر أو نظم يُراد فرضها فى إطار العولمة. ويهدف كتابنا هذا لتقديم بعض التّجذير التاريخى والاجتماعى لهذه الدائرة المهمة من خلال أربعة بحوث سبق نشر معظمها فى دوريّات علمية وجامعية محترمة.

من هذه البحوث بحث نشرتُه فى سنة ١٩٨٨م (١٤٠٨هـ) فى مجلة كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز فى جدّة عن التفاعل الاجتماعى الوثيق بين المسلمين سواء كانوا من البربر أو من العرب أو من الإسبان، وأهل إسبانيا الكاثوليك الذين أصروا على بقاء المسلمين رغم سقوط دولتهم - أى دولة المسلمين سياسيا، ويثبت هذا البحث بوثائق دامغة أن الإصرار على طرد المسلمين كان لأسباب غير طبيعية وقد أدّى هذا لانهيار اقتصادى عانت منه إسبانيا بعد ذلك ولفترة غير قصيرة فى القرن ١٦ وبداية ١٧، كما يشير هذا البحث لتعاون إسلامى يهودى فى زمام الثقافة المتوسطية امتد ليشمل سواحل المغرب كلها، بل ووصل إلى تركيا ذاتها ذاتها (مركز الدولة العثمانية).

وفى هذا الكتاب مبحث آخر عن جنوة والبندقية، وكان الساحل الجنوى المتوسطى يُعرف بالبحر الليجورى، وما جرى من تفاعلات اقتصادية مع الكيانات الإسلامية على طول البحر المتوسط فى القرنين ١٦ و ١٧، وقد نشرتُ هذا البحث فى المجلّة التاريخية المغربية، فى العدد ٤٣ الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٨٨. لقد كان لهذا التفاعل أثره الكبير فى دور المسلمين فى صياغة التاريخ الأوروبى الحديث، كما أن العكس صحيح أيضا بلا جدال.

ومن مباحث هذا الكتاب أيضا بحث يؤكد بالوثائق وبمصادر أصيلة نوعًا من التفاعل بين الإسلام وحركة الإصلاح الدينى الأوروبية يصل إلى حد وصفه بالتبادل الثقافى أو تبادل التأثير والتأثر. وقد أخذ هذا المبحث عنوان: حركة إصلاح دينى أوروبية لم تلق الاهتمام الكافى، وقد نُشر فى سنة ١٩٨٧(١٤٠٧هـ) فى مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود (المجلد ١٤)

هذا كله إلى جانب المبحث الأول الذى صدّرت به كتابى هذا وأسميته المبحث التمهيدى والذى اعتمدتُ فيه على جُملة مصادر محترمة، منها «قصة الحضارة - عصر نابليون» الذى ألّفه فى أواخر حياته ول ديورانت المفكر والباحث الأشهر، وقد أشرك معه فى تأليفه زوجته إرل ديورانت.

وقد خلص ديورانت - وزوجته - إلى أن أوروبا بعد الثورة الفرنسية - التى اعتبرها على نحو ما حركة إصلاح دينى أو حركة فى سياق تاريخ الإصلاح الدينى فى أوروبا - قد انتهت إلى أنّ كثيرا من أمور الدين غامضة ولا يمكن إخضاعها لمنطق العلم، لذا فقد كان هناك شبه اتفاق عام غير مكتوب أن يعتقد كل فرد ما يشاء ويتصور الخالق كما يشاء و يجرى - أو لا

يجرى ـ طقوسه الدينية كما يشاء، شريطة عدم إزعاج الأمن العام أو تهديد أمن البلاد.

وكان من بين ما خَلُص إليه ديورانت ـ وزوجته ـ أنَّ محاولة إلغاء الدين كانت هى أيضا محاولة عقيمة لأن وجود الدين هو فى حد ذاته وسيلة من وسائل ضبط السلوك البشرى.

ومن خلال عرض ديورانت يتضح لنا أن الثورة الفرنسية كانت ثورة متوسطية فى كثير من جوانبها، فقد ساهم فيها بالفعل والفكر جماعة الجيرونديين، وجيروند منطقة كثر فيها عدد المسلمين الفارين من إسبانيا بعد صدور القرار بطردهم، وتحوّل عدد كبير منهم إلى المسيحية (تقيَّة) لكن أفكارهم الدينية التى ألبسوها لبوسا علمانيا ظهرت فى أثناء الثورة؛ فهم الذين طالبوا بإلغاء الميّسر واللوترية وإغلاق الحانات بل ومنع الخمور، وقد صدرت مراسيم ثورية بالفعل بهذا كله، لكن جرى التخلّى عنها ـ تدريجيا ـ بعد ذلك.

ومن الكتب التى رجعت إليها فى هذا المبحث كتاب بريدرك ماتفيجيفتش المعنون: ترانيم متوسطية (ترجمة عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالى. الرباط، دار توبقال للنشر) وهو كاتب من شرق أوروبا، وقد راح يتلمس السّمات المشتركة للثقافة المتوسطية أو الامتداد الثقافى المتوسطى وليس مجرد الامتداد الجغرافى، فحدثنا عن الثقافة اليونانية التى تركت طابعا واضحا، وحدثنا عن شجرة الزيتون، فحيث توجد أشجار الزيتون توجد الثقافة المتوسطية، وحدثنا عن شبكة الاتصالات بين الأديرة التى أعطت للثقافة المتوسطية طابعا باطنيا، كما حدثنا عما يشبه ثقافة «الاحتيال» فى النطاق المتوسطى.. الخ

وعن التأثير المتبادل بين الأديان رجعت - مثلا - لكتاب العثمانيين فى أوروبا، للباحث بول كولز الذى ذكر من بين ما ذكر طائفة «البوجوميل» المسيحية فى شرق أوروبا التى يتطهر أفرادها بالماء (يتوضأون) قبل الصلاة.. لقد كان التفاعل بين عناصر الثقافة فى نطاق البحر المتوسط يعطيها سمات مشتركة يمكن أن نطلق عليها ببساطة ثقافة متوسطية وإن كان بريدرك يرى أن القبط (المصريين) اهتموا بالنهر أكثر من اهتمامهم بالبحر كما يرى - وقد نختلف معه - أن العثمانيين كان اتجاههم بريا أكثر منه بحريا، وكان هذا هو أحد أسباب سقوطهم فى النهاية.

وعرضت فى هذا المبحث دور الثقافة المتوسطية فى بلورة أفكار الإسلام منذ أيامه الباكرة، معتمدا على مصادر تراثية أصيلة، منها كتاب يوحنا النقيوس الذى عاصر الفتح الإسلامى لمصر، وعلى أفكار كتاب (حقيقة حروب دولة الرسول) الذى ألفته منذ ثلاثة أعوام. والحقيقة أنه لا يمكننى الزعم بأن هذا الكتاب قد غطّى كل عناصر الموضوع أو حتى نصفها، فلا زالت الدائرة المتوسطية فى حاجة إلى دراسات كثيرة من المتخصصين فى مختلف المجالات لكنْ مالا يُدرك كله، لا يُترك كله وعلى الله قصد السبيل

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

القاهرة، المعادى الجديدة

المبحث التمهيدى

بشىء يسير من التأمل والتوثيق يتَّضح أنّ الجانب المتوسطى (نسبة إلى البحر المتوسط) فى الإسلام - حتى فى نشأته الأولى - أوضح من أن يُنْكر، وإن جرى تجاهله فى وقت من الأوقات لأسباب غير واضحة، وسنحاول توضيحها تباعًا فى سياق هذا المبحث. فلم يكن أوّل نجاح حقيقى للإسلام على أرض شبه الجزيرة العربية، ولم يكن تفاعله الناجح الأوّل صحراويا وإنما كان فى زمام ثقافة البحر المتوسط.

قد تبدو هذه الأفكار غريبة، لكنها الحقيقة الموَّثقة. لقد نزل الوحى على النبى محمد ﷺ كما هو معروف عندما كان فى الأربعين من عمره وكان هذا فى سنة ٦٠٩ م وكانت مكة التى عاش فيها محمد ﷺ أكثر من نصف قرن مدينة تجارية اشتغل أهلها فى بداية الأمر سماسرةً وتجار تجزئة لكنهم فى نهاية القرن السادس للميلاد تحكّموا فى التجارة بين اليمن والشام إلى حد كبير.

وهو طريق مهم كانت تمر به بضائع الهند المُترفة (البخور والعطور وغير ذلك) إلى الغرب.. وأصبحت مكة أيضا فى نحو هذه الفترة مركزًا ماليًا.. فقد

كان زعماء مكة رجال مال قبل كل شيء.. مهرةً في إدارة شئون المال وذوي دهاء، وأشركوا معهم كبار رجال القبائل الصحراوية في سُبلهم المالية تلك.. في مثل هذه البيئة لم يكن من الممكن أن تنجح أي دعوة إصلاحية تهزّ النسيج القائم.. لذا لم ينجح الإسلام في مكة عند ظهوره فقد ظلت دعوته سرّية حذرة طوال ثلاث سنوات أي إلى حوالي سنة ٦١ للميلاد، وما كاد النبي ﷺ يجهر بدعوته حتى وظّف السماسرة والماليون والتجار كل لؤمهم لمحاصرة الدعوة وإيذاء الداعي ومن آمن به.. طوال عامين بعد الجهر بالدعوة لم يحقق الإسلام في مكة نجاحا كبيرا (إنما تحقق هذا بعد الفتح) ناهيك عن فترة الدعوة السرية.السابقة على الدعوة الجهرية والتي أشرنا إليها آنفا. لذلك طلب النبي ممَّن آمن به أن يهاجروا إلى كنيسة الإسكندرية وهي عبارة تكاد تكون مرادفه للهجرة إلى الحبشة المسيحية التي لم تكن تخلو من يهود.

كان العون الديني الأوّل الذي تلقّاه النبي ﷺ من ورقة بن نوفل المسيحي عم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أما العون الثاني الذي تلقاه النبي وصحبه فهو استقبال الحبشة المسيحية لأصحاب الدين الجديد وإكرامهم والتفاعل مع عقيدتهم التي رأوا فيها عقيدة لا تخرج عن السياق العام للعقيدة المسيحية بل لقد كان من الأحباش من يقول في المسيح عليه السلام المقالة بنفسها التي يقولها المسلمون وكان من هؤلاء النجاشي نفسه.

وحتى لو صحَّ أنَّ الهجرة لأرض مَسيحية كانت في السنة السابعة من البعثة النبوية (٦١٧م) أي بعد محاصرة تجار مكة وسماسرتها للنبي محمد وللتابعين له في الشِّعب، ومن ثمّ وجه النبي أتباعه للهجرة إلى الحبشة، فإن الحبشة المسيحية التابعة دينيا لكنيسة الإسكندرية من الناحية الرسمية لا تكون - في هذه الحال - مجالاً للدعوة فحسب ولا مجالاً للأمن فحسب وإنما مجالاً للرزق

وخرقا للحصار المفروض على أتباع محمد ﷺ الذين عُرفوا فيما بعد بالمسلمين. لقد بدأ الإسلام يحقق نجاحا ملحوظا بعد تلاحمه مع أحد الفروع العقائدية لكنيسة الإسكندرية، فما كان يجرى فى الحبشة من اختلافات عقائدية كان هو نفسه ما يجرى فى مصر (راجع التفاصيل فى : يوحنا النقيوسى الذى عاصر الفتح الإسلامى لمصر، ترجمه عن الحبشية د. عمر صابر. القاهرة، دار عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٣)

ظلَّ الإسلام إذن حبيسا فى الزمام الوثنى المكى لم يحقق نجاحا يُذكر طوال ثلاثة عشر عاما، ولم تأته الانفراجة الحقيقية إلا بعد تلاحمه مع المسيحية فى شكلها المتوسّطى (كنيسة الإسكندرية) ثم بعد تلاحمه مع اليهودية بعد هجرة النبى إلى المدينة المنوَّرة (عبد الرحمن عبد الله الشيخ: حقيقة حروب دولة الرسول. القاهرة، دار الصابونى)

والأمر الذى قد يُدهش كثيرين أنَّ مونتجمرى وات وهو مستشرق جاد يعتبر أنَّ الإسلام قد شارك المسيحية الأوروبية فى الثقافة اليونانية (وهى ثقافة متوسطية) باستيعابه كثيرا من مفرداتها، وتقبّله للعلم اليونانى والفلسفة اليونانية، ومن هنا فالإسلام - فيما يرى وات - أقرب للغرب من اليهودية فمع أن العهد القديم (التوراة وملاحقها) يشكل جزءا من الكتاب المقدَّس المسيحى، إلا أنَّ اليهودية ذات طابع شرقى Oriental أكثر من الإسلام بكثير. (مونتجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر. القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب الثانى، ص ١٦)

وكثيرا ما يكون الباحثون فى التاريخ الاجتماعى أقرب للوصول إلى الحقيقة خالصة من الاختصاصيين فى التاريخ السياسى والعسكرى، فالباحث البريطانى بول كـــولز Paul Coles اعتبر العثمانيين أحد العناصر التى شكَّلت التاريخ

الأوربى، بل وأصدر كتابا بعنوان «العثمانيون فى أوروبا» أو «الأثر العثمانى على أوروبـا» The Ottoman Impact on Europe ضمن سلسلة الحضارة الأوروبية European Civilization وهذا لا يخلو من دلالة، واستخدم كولز ألفاظ: الترك والعثمانيين والمسلمين على نحو تبادلى فهو مثلا يقول أحيانا «هاجم الترك فينا وأحيانا «تراجع العثمانيون عن فينا» وفى الفصل الأخير من كتابه آنف الذكر يحدثنا عن «تراجع الإسلام» وهو يقصد تراجع العثمانيين. والكتاب يحدثنا عن المسلمين فى شرق أوروبا، فى بلغاريا وفى رومانيا وفى يوغسلافيا (السابقة) وفى تشيكوسلوفاكيا (السابقة) وفى شمال شرق اليونان (تسالونيكا) وفى ألبانيا وفى المجر.. وهؤلاء المسلمون فى أوربا معظمهم من أهل أوربا الأصليين.. إنهم ألبان وتشيك ويوغسلاف ومجر وبلغار.. وليسوا أتراكًا من الناحية العرقية.

بل إن كولز يُشير إلى أن العثمانيين بتمركزهم فى شرق أوربا منذ القرن ١٤م هم الذين حموا بيزنطة من السقوط فى أيدى الصرب (الأورثوذكس) الذين كانوا قد بلغوا أقصى اتساع لهم على عهد ستيفان دوسان.. وهو تحليل جدير بالتأمل، فكما كان دخول المسلمين مصر أحد العوامل الحاسمة فى الإبقاء على الأورثوذكسية المصرية، كان تمركز العثمانيين فى شرق أوروبا أحد أسباب بقاء أحد مكوّنات المسيحية الأوروبية.

ويربط بول كولز بين الصراع الذى دار فى الدولة العثمانية بين السنّة من ناحية وأصحاب البدع من ناحية أخرى، وحركة الإصلاح الدينى فى أوربا، فقد كان البروتستنط يعتبرون الكاثوليك أصحاب (بدع)، ويؤكد المؤلف أنه كان للعثمانيين أثر مهم فى نجاح حركة الإصلاح الدينى الأوربية فقد كان البروتستنط يعتبرون أنفسهم كالمسلمين محطّمى أوثان. وعلى كل حال فإن كولز كان مثل معظم المؤرخين الأوربيين يعتبر أن العثمانيين كانوا مصدر الإزعاج

الأساسى لأوريا حتى سنة ١٥٧١ إلا أنّ هزيمة العثمانيين فى معركة ليبانتو أدّت إلى تخفيف وطأتهم على أوروبا، غير أن كولز يعود فيقول «إن الوجود العثمانى فى أوروبا قد أسهم فى تطور أوروبا بشكل عظيم وزامنه» أى زامن هذا التطور.

ويرى أن محاولة الإسبانيين والبرتغاليين خنق التجارة العثمانية هى التى أدت إلى توسع العثمانيين فى أوروبا الدانوبية لفتح الطريق للتجارة.

ويرى أنَّ الحدود الفاصلة بين المجتمعين الإسلامى والمسيحى قد انهارت حضاريا وثقافيا بعد وصول قوّات سليمان القانونى إلى فيينا. لقد تفاعلت المسيحية بمختلف مذاهبها فى هذا الزمام المتوسطى، بل وفى أوروبا الدانوبية مع الفكر الإسلامى، وأصبح من الصعب فصلهما منذ ذلك الحين (بول كولز: العثمانيون فى أوروبا: الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب الثانى، ص ص ٥ - ١٥)

والمتأمل لخريطة الأديان والمذاهب على جانبى المتوسط يلاحظ تداخلاً شديدا بين أفكار الديانات السماوية المختلفة، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

- فطائفة البوجوميل Bogomils المسيحية تأسست فى بلغاريا فى القرن العاشر للميلاد على يد كاهن مسيحى يحمل الاسم نفسه (بوجوميل) وانتشرت هذه الحركة فى القرن الحادى عشر فى الصرب وكرواتيا وغيرهما، وقد آمنت هذه الطائفة بضرورة الوضوء (التطهر بالماء) قبل أداء الصلاة، ورفضت عبادة الأيقونات. وكان لهذه الحركة تأثير كبير على الأفكار الدينية المسيحية امتد حتى غرب أوروبا (بول كولز: العثمانيون فى أوروبا. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب الثانى).

- الألبيجنيون - حركة دينية انشقّت عن كنيسة روما الكاثوليكية وكان مركز الحركة فى المقاطعة الفرنسية لانجدوك، ولم يعترفوا بسلطة البابا ورفضوا

مبدأ التثليث وعبادة الأيقونات. إنها إذن حركة يظهر فيها التفاعل المتوسطى واضحا. حقيقة إن البابا أنوسنت الثالث شن عليهم حملة شتتهم فى سنة ١٢٠٩ لكن التاريخ علّمنا أنّ الأفكار لا تنتهى بهذه السهولة.

(Art: Albigenes, Scientific Lexicon ترجمه إلى العربية أ. سعد الفيشاوى of Religious Beliefs)

- محاولات التجديد فى الكنيسة الكاثوليكية هى فى الأساس تفاعل متوسطى، ونعنى بالتجديد هنا حركة محدّدة عُرفت فى كنيسة روما بالأجيورنامنتو Aggiornamento كان من أهدافها تحديث الكاثوليكية والتفاعل مع الأديان الأخرى وعلى رأسها الإسلام (عن الأجيورنامنتو راجع The Scientific Lexicon of Religious Beliefs) ترجمه إلى العربية الأستاذ سعد الفيشاوى

- الأدميون Adamites (نسبة لآدم عليه السلام) الذين رفضوا كل أنواع التنظيمات الكنسية ورفضوا المشاركة فى أية طقوس دينية، ومارسوا حياة «الفطرة»، وقد انتشروا فى القرنين ١٤ و ١٥ فى بلغاريا وبوهيميا (تشيكو سلوفاكيا فيما بعد)

(Art: Adamites in Scientific Lexicon.. ترجمه إلى العربية أ. سعدالفيشاوى)

- ظهرت طائفة الإبراهيميين Ibrahamites المسيحية فى إطار الكنيسة الكاثوليكية، فى منطقة بوهيميا (بتشيكو سلوفاكيا) فى القرن ١٨ وقد حاولوا التمسك بعقيدة إبراهيم الخليل الأصلية، فآمنوا بإله واحد وبخلود الروح وتحريم لحم الخنزير وتوقير السبت (الذى يبدأ من مغرب يوم الجمعة) ورفضوا فكرة التجسد البشرى للأب، كل هذا وهم يقولون إنهم مسيحيون. يتزوجون فى

الكنيسة ويُعمدون أبناءهم، إلا أنه جرى اضطهادهم وتم ترحيلهم إلى تخوم الإمبراطورية النمساوية فى عهد قيصر النمسا جوزيف الثانى (١٧٤١ - ١٧٩٠)

- والمتأمل لأفكار هذه الجماعة المسيحية لا يراوده شك فى انها مزيج يهودى مسيحى إسلامى The Scientific Lexicon of Religious Beliefs Art: Ibrabhamites ترجمة سعد الفيشاوى)

- فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ظهرت جماعة عرفت بالهارونيين أو جماعة هارون Aaronites نسبة إلى هارون زوكوف الذى رفض الجانب الرهبانى فى المسيحية (The Scientific Lexicon of Religious Beliefs, Moscow - Art: Aaronites)

ولايمكن تفريغ هذا التطور من تفاعلات مسيحية إسلامية، كما لا يمكن تفريغ بقاء هذا الاتجاه حتى الآن من تفاعلات مسيحية مادية، بمعنى محاولة مسيحية للتواؤم مع المسار الطبيعى للحياة.

فالدائرة المتوسطية لا تنزع من مصر إسلامها، الذى هو مكوّن أساسى من مكونات هُويتها الثقافية لأن التفاعل الناجح الأول للإسلام إنما كان فى إطار ثقافة متوسطية (كنيسة الإسكندرية) التى التقى بها الإسلام فى الحبشة التى مثلت أول هجرة للمسلمين المضطهدين آنئذ.

وكنيسة الإسكندرية، كنيسة مستقلة وهى أحد المراكز الرئيسية الأولى للمسيحية، وقد اعترف بها مجمع نيقية المقدس ٣٢٥م كأحد أهم الكنائس، جنبا إلى جنب مع كنيسة روما وكنيسة أنطاكية، ويرأس كنيسة الاسكندرية البابا الذى هو بطريرك الإسكندرية وعموم أفريقيا.

وإذا كان الإسلام مكونا أساسيا من مكونات الشخصية المصرية، فلا مراء فى أن المسيحية هى أيضا إحدى مكونات هذه الشخصية، فللمسيحية وجود

حقيقى فى مصر، كما أن القبط (المصريين) عندما أسلموا حملوا معهم بالتأكيد تراثا فكريا مسيحيا بوعى أو بدون وعى، كما هى طبيعة الأشياء. والمسيحية أيضا تراث متوسطى، فانتماء مصر إلى الدائرة المتوسطية لا يفقدها هذا العنصر، تماما كما أنه لم يفقدها العنصر الإسلامى.

لقد كان توجّه الأديان السماوية الأساس حتى منذ عهد إبراهيم الخليل اتجاها متوسطيا (نحو البحر المتوسط) فقد خرج إبراهيم الخليل من أور (جنوب العراق الحالى) متوجها إلى بابل فمارى (على نهر الفرات) ثم حاران (شمال غرب العراق الحالى)، وكلها مناطق غير متوسطية أى لم يدرجها الباحثون ضمن زمام حضارة البحر المتوسط، لكن إبراهيم الخليل توجه بعد ذلك إلى هذا الزمام المتوسطى العالمى، فقد توجه إلى حلب (الشام) ومنها إلى نهر الأردن حيث أقام فى شكيم، وعندما أجدبت البلاد توجه إلى مصر حيث أقام فى صوعن (شرق الدلتا الحالية)، وعاد بعد ذلك إلى حبرون (الخليل) بالقرب من البحر الميت، كان مسار الخليل إبراهيم - إذن - منذ قدم حلب، فى زمام حضارة البحر المتوسط خاصة عند توجهه لمصر ومن ثم عودته إلى حبرون (الخليل).

كان إبراهيم الخليل قد أخذ معه كل أمواله ممثلة فيما يمتلكه من الأغنام والمواشى، قد صحب أسرته وراح يرعى مواشيه وأغنامه فى جبال كنعان (فلسطين) وسهولها وهضابها حتى استقر قرب حبرون (الخليل)، وقد توجه حفيده يعقوب بعد ذلك ليقيم فى أواخر أيامه فى مصر مع ابنه يوسف (عليه السلام).

وكان التوجه المتوسطى لليهود واضحا أيضا فقد نشأ موسى عليه السلام فى مصر، وفيها تعلّم ولاشك لغة أهلها، وبعد خروج موسى ومن آمن بدينه من مصر،

قضوا فى البرية أربعين سنة سواء برية سيناء أو ما يليها شرقا كما تشير أطالس الكتاب المقدس (أطلس الدارسين للكتاب المقدس - خريطة رقم ٥)، ومن ثمّ عبروا نهر الأردن والبحر الميت عائدين إلى الزمام المتوسطى بعد أن كانوا قد تطرفوا إلى الشرق منه، وكان عبورهم للنهر متجهين غربا عند موآب (شرق البحر الميت) فاتجه بعضهم إلى أريحا وبعضهم إلى يبوس وهى أورشليم (القدس) وبعضهم إلى عاى وبيت إيل (أي بيت الله).. من الواضح أن حركة اليهود. أو بنى إسرائيل ومن آمن بدينهم كانت منذ هذا الزمن الباكر حركة متوسطية أو حركة تنتحى انتحاء متوسطيا، لكنها لم تصل إلى سواحله (الساحل الشرقى)، فلم يكن بنو إسرائيل فى توجههم المتوسطى هذا يجتازون أرضا بلا صاحب أو أرضا خلاء فقد أوقف الفلسطينيون والكنعانيون مدّهم إلى الساحل (أطلس الدارسين للكتاب المقدس ص ص ٧ - ٨) وقُتل أول ملك لإسرائيل التوراتية (شاول) فى جبل جلعاد، وهو يواجه القوات الفلسطينية من الغرب والعمونية من الشرق (المرجع نفسه، ص٩) حتى بعد ذلك استمر للفلسطينيين وجود قوى على الساحل، وقد حدث تبادل ثقافى ولاشك بين مختلف الشعوب المتوسطية فى هذه الفترة كما تشير المصادر بشكل أو بآخر (انظر خريطة ١٢ أو خريطة الأنبياء، أطلس الدارسين للكتاب المقدس)

ويلاحظ أن التوجهات العامة لثلاث امبراطوريات متوالية فى التاريخ القديم كانت توجهات متوسطية وإن كانت هى نفسها ليست متوسطية أى لم تكن متوسطية النشأة والثقافة، على وفق ما يرى باحث اهتم بجمع خصائص الشخصية المتوسطية وسماتها العامة (بريدريك ماتفجيفتش: تراتيل متوسطية. ترجمة عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالى. الرباط، ٢٠٠٣)

١. الامبراطورية الأشورية (حوالى ٦٥٠ق.م) التى توجهت نحو المتوسط فى الفترة من ٨٨٠ إلى ٦١٢ ق.م ووصلت فى امتدادها الغربى هذا إلى مصر.

٢ـ الامبراطورية البابلية (حوالى عام ٥٥٠ ق.م) التى دمر ملكها نبوخذ نصر أورشليم ورحّل سكانها.

٣ـ الإمبراطورية الفارسية (حوالى عام ٤٥٠ ق.م) التى وصلت حدودها إلى مصر وما يعرف الآن بتركيا بل وعبرت قواتها البسفور والدردنيل لتضم تراقيا ومقدونيا (مكدونية) وقد شجع ملوك فارس التسامح الدينى وطبقوه خاصة بالنسبة لليهود، ولعل أشهر هؤلاء هو كورش.

ولاشك أن هذه الامبراطوريات فى توجهها نحو المتوسط قد أثّرت فيه وتأثرت به، وحدث ـ ولابد ـ امتزاج ثقافى بل ودينى، بشكل أو بآخر.

وعلى أية حال فقد أتى دور الامبراطوريات المتوسطية الخالصة. أى التى كان منشؤها البحر المتوسط نفسه:

١ـ الإمبراطورية اليونانية (حوالى ٣٢٣ ق.م) فقد فازت اليونان فى صراعها مع الفرس بمنطقة الشرق الأوسط، بل واكتسح الاسكندر الأكبر بلاد فارس نفسها إلا أن هذه الامبراطورية اليونانية الشاسعة تقسمت بعد موته سياسيا، لكنها ظلت فى إطار الثقافة اليونانية، وكان اليونانيون معتزين بثقافتهم، ولم يرق هذا لفئات عرقية بعينها خاصة اليهود الذين قاموا بثورة عرفت بثورة المكابيين أو الثورة المكابية نسبة إلى يهوذا المكابى ١٦٦ ـ ١٦٠ ق. م فطرد اليونانيين من أورشليم.

٢ـ أما الامبراطورية الرومانية فقد كان امتدادها المتوسطى أشمل، سواء فى شمال المتوسط أو فى جنوبه أو فى شرقه، فقد هيمنت تقريبا على كل السواحل المتوسطية واستخدم الرومان اللغة اليونانية لنشر الثقافة الهيلينية. لقد كانت الامبراطورية الرومانية فى أيام المسيح عليه السلام مهيمنة تماما على الزمام المتوسطى الذى يهمنا فى هذا السياق، بالإضافة طبعا لامتدادات شاسعة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا

وكان من الطبيعى أن يكون توجه انتشار المسيحية فى مراحله الأولى توجها متوسطيا، لسبب بسيط وهو أن المسيحية نفسها ثقافة (ديانة) متوسطية.

لقد كان النشاط الدَّعوى الأول ليسوع المسيح فى إقليم الجليل فى فلسطين، فحول بحيرة الجليل أو بحيرة طبرية كما هى معروفة الآن تجول المسيح عليه السلام داعيا إلى الله مبرزًا معجزاته فى الشفاء. كانت مدينة كفر ناحوم على بحيرة طبرية هى ميدان نشاطه الأول أو هى مجال «خدمته» على حد التعبير الذى يفضله الإخوة المسيحيون، وكان معظم سكان كفر ناحوم يعملون فى مجال صيد الأسماك. الاتجاه البحرى المتوسطى هنا واضح ليس مكانا فقط، وإنما حرفة أيضا فالصيادون عامة وصيادو الأسماك خاصة، يتعاملون مع مجهول تحت سطح الماء فى النهر أو البحيرة أو البحر.. إنهم الأكثر قبولا لأفكار «الرزق» و «الغيب» و «القسمة» و «النصيب» و «البركة».. الخ

فى منطقة مهمة من الدولة الرومانية - إذن - ظهرت المسيحية، وكان الوضع فى فلسطين عند ظهور المسيحية وقبيله كالتالى، على وفق ما أوجزه أطلس الدارسين للكتاب المقدس الآنف ذكره «فى عام ٦٢ ق. م استولى القائد الرومانى بومباى على مدينة أورشليم (القدس) وكان هذا بداية فترة حكم الرومان لفلسطين، وقد دام هذا الحكم سبعة قرون، وحكم هيرودوس الكبير فلسطين تحت سيادة الرومان، وعند موته سنة ٤م تم تقسيم نطاق حكمه بين ابنائه الثلاثة، فحكم ابنه أنتيباس الجليل وبيريه (أو برية/ على نهر الأردن).

وحكم فيلبس أيطورية وتراخونيتس (إلى الشرق والشمال الشرقى من بحر الجليل المعروف الآن باسم بحيرة طبرية) أما منطقة اليهودية (يهوذا) والسامرة وأدومية (جنوب اليهودية أو يهوذا) فحكمها أرخيلاوس.

وفى عام ٦م حكم هذه المنطقة بدلاً منه والى رومانى آخر. وفى أيام محاكمة المسيح كان بيلاطس النبطى هو الوالى (٢٦ - ٣٦م). أما المنطقة المسماه المدن

العشر (ديكابولس) فكانت تحظى بنوع من الحكم الذاتى (تعليقات على خريطة رقم ٢١)

وبعد تعرض اليهود المُتنصّرين للاضطهاد اتجهوا إلى منطقة يهوذا (اليهودية) جنوبا وإلى السامرة وفينيقية وسوريا شمالا، واتجه آخرون غربا نحو الساحل ونحو قبرص، ولم يكونوا يعرفون باسم المسيحيين فى هذه المرحلة الباكرة وانما جرى إطلاق اسم المسيحيين عليهم لأول مرة فى أنطاكية Antioch كل اتجاهات هذه الهجرة الباكرة كانت - كما يرى القارئ - متوسطية. لكن هذا التوجه يصبح صارخا واضحا منذ رحلات الداعية بطرس التى بدأت حولى سنة ٤٧م ويوضح لنا سفر «أعمال الرسل» الملحق بالأناجيل الأربعة المعروفة هذه الرحلات تفصيلا.

لقد اصطحب بولس - هذا الداعية المهم - دعاة آخرين هم برنابا ويوحنا ومرقس إلى برجه (الساحل الجنوبى لتركيا الحالية) وتركهم عائدا إلى أنطاكية لينشروا الدعوة فى هذه الانحاء.

وفى الرحلة الثانية توجه بولس ومن معه إلى جزر بحر إيجه (بين اليونان وتركيا الحالية)

وإلى كورنثوس وتسالونيكا (اليونان الحالية) وكانت رحلة بولس الثالثة هى أطول الرحلات من حيث المدى المكانى (المسافة التى قطعها) والمدى الزمانى (المدة التى قضاها)، وكانت رحلته الرابعة إلى إيطاليا حيث طلب هو نفسه ألا يُحاكم إلا فيها ليدافع عن نفسه ضد التهم التى كالها له أعداء المسيحية فى أورشليم.

كل الكنائس الأولى (فى القرن الأول الميلادى) كانت على سواحل البحر المتوسط أو بالقرب منه.

كنائس أسسها الداعية بولس:

١. دربه (تركيا الحالية)

٢. أيقونة (تركيا الحالية)

٣. لسترة (تركيا الحالية)

٤. برجه (تركيا الحالية)

٥. أنطاكية بيسيدية (تركيا الحالية)

٦. كورنثوس (اليونان الحالية)

٧. تسالونيكى (اليونان الحالية)

وباقوس (قبرص الحالية)

كنائس كتب إليها يوحنا (كاتب الإنجيل المعروف باسمه)

٨. لاودكية (تركيا الحالية)

٩. فيلادلفيا (تركيا الحالية)

١٠. أفسس (تركيا الحالية)

١١. سميرنا (تركيا الحالية)

١٢. برغامس (تركيا الحالية)

١٣. ساردس (تركيا الحالية)

١٤. ثياثيرا (تركيا الحالية)

كنائس أخرى تأسست فى القرن الأول للميلاد:

١٥. أورشليم

١٦. بيلا

١٧. قيصرية

١٨. صور

١٩. صيدون

٢٠. دمشق

٢١. سلوكية (سلوقية)

٢٢. أنطاكية

٢٣. أدامسا (تركيا الحالية)

٢٤. طرسوس (تركيا الحالية)

٢٥. سلاميس (قبرص الحالية)

٢٦. كولوسى (تركيا الحالية)

٢٧. ميليتس (تركيا الحالية)

٢٨. ترواس (تركيا الحالية)

٢٩. أثينا (اليونان الحالية)

٣٠. بيرية (فى اليونان)

٣١ . روما (رومية)

٣٢. بوطيولى (إيطاليا)

والبحر المتوسط هو فى العهد القديم (البحر) وكفى، فإن قيل البحر دون أى وصف فهو البحر المتوسط ولا سواء، لكن بعض النصوص التوراتية تضيف إليه

صفات مميزة مثل «البحر الكبير» أو «البحر العظيم» أو البحر الغربى أو البحر العظيم الواقع نحو غروب الشمس، وذلك تمييزا له عن بحار أو بحيرات أخرى، كبحر الجليل (بحيرة طبرية) وبحر العربة (البحر الميت) الذى يسمى أيضا بحر لوط، والبحز الأحمر (بحر سوف)

ويحدد التراث التاريخى لا الجغرافى فقط الزمام المتوسّطى، فحضارات المتوسط توجهت توجها غربيا وأثرت بقوة فى الحضارة الغربية، لكنها لم تؤثر بما فيه الكفاية فى حضارة بلاد الرافدين (العراق) وما يليها شرقا (دائرة المعارف الكتابية. تأليف الدكتور القس صموئيل حبيب وزملائه)

وفى نطاق المتوسط عُرفت قطاعات مائية معينة باسم بحار، كبحر الإدرياتيك بين الساحل الإيطالى الشرقى واليونان، وبحر إيجه بين الساحل اليونانى الشرقى وتركيا، وبحر إيجه متصل بالبحر الأسود، لذا فتركيا الحديثة تقع ضمن الزمام الحضارى للبحر المتوسط، وهناك أيضا البحر الليجورى وهو الزمام المائى الذى تطل عليه مدينة جنوة الإيطالية.

وقد تلمَّس الباحث الأديب بريدرك ماتفجيفتش . كما سبق أن ألمحنا . بعض السمات المتوسطية فربطها بأشجار الزيتون، وبين الاتصالات غير المعلنة بين الأديرة على جانبيه الشمالى والجنوبى ومع أديرة ساحله الشرقى، واتسام أهل هذه الدائرة بالمرح والاحتيال وتداخل السمات الحضارية المختلفة (تراتيل متوسطية. الرباط، دار توبقال للنشر) ولم تكن هذه السمات والتداخلات بنت التاريخ القديم والوسيط فحسب وإنما استمرت أيضا فاعلة مؤثرة فى التاريخ الحديث، وفى التاريخ المعاصر مُعطية سمات لا يمكن تجاهلها للدائرة المتوسطية.

لقد تجلّى هذا التداخل المتوسطى - على سبيل المثال - فى أحداث الثورة الفرنسية الكبرى التى يعتبرها ول ديورانت (قصة الحضارة - عصر نابليون) ثورة إصلاح دينى أو على الأقل اعتبرها امتدادا لحركات الإصلاح الدينى الأوروبية.

إنه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر، والقارة الأوروبية كلها خاصة من أطرافها كانت عرضة لتأثيرات إسلامية واضحة فى مختلف المجالات لم تحظ بدراسة كافية، فقد وجدنا لورد أكتون يقرر بوضوح أنّ التاريخ الأوروبى الحديث يبدأ تحت مطارق العثمانيين. وقد أظهرت الوثائق الأوروبية التى راجع كثيرا منها بعض الباحثين الأوروبيين أن كثيرا من المناطق الأوروبية كانت تستنجد بالعثمانيين إذ كان أهلها يطلبون بأنفسهم أن يفتح العثمانيون بلادهم، تخلّصا من حكم مسيحيين يخالفونهم فى المذهب أو مسيحيين يسومونهم سوء العذاب، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أهل كريت توسّلوا إلى العثمانيين أن يأتوا ليفتحوا بلادهم، كما يؤكد الباحث البريطانى بول كولز. كما نظر أهل المورة للعثمانيين باعتبارهم مخلصين بعد أن سئموا سيطرة البنادقة الكاثوليك. وكان وصول العثمانيين لساحل دلماشيا (الساحل المقابل للبر الإيطالى الشرقى) واستقرارهم فيه منذ القرن ١٥ حدثا جللا أثر على سائر أنحاء أوروبا.

وكانت أوروبا كلها منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن ١٧ وربما بعد ذلك تتابع المواجهات بين المسلمين والكاثوليك، فى البحر المتوسط خاصة، مع اختلاف وجهات نظرهم إزاء هذه المواجهات بطبيعة الحال، فبينما كان عدد من البروتستنط وبعد ظهور البروتستنطية يرى فى أسبانيا الكاثوليكية حامية للمسيحية بمذاهبها المختلفة، أو على الأقل لا يتمنى هزيمتها أمام العثمانيين، ومجاهدى البحر المتوسط، كان هناك عدد آخر من البروتستنط يرى فى الصراع بين المسلمين والكاثوليك الإسبان، صراعا بين شيطانين

ويتمنى أن يذهب كلاهما - المسلمون والكاثوليك - إلى حيث لا عودة. وفى وقت من الأوقات كان البروتستنط يجدون فى مناطق أوروبا الشرقية (النطاق المتوسطى) الخاضعة للعثمانيين ملجأ وملاذا لهم هربًا من الاضطهاد الدينى.

فإذا ما تركنا شرق أوروبا وانتقلنا إلى غربها وجدنا حقائق أخرى مذهلة أثبتتها الوثائق التى كشف عنها الباحثون الغربيون وهى أن الشعب الإسبانى كان معارضا لإخراج المسلمين بعد سقوط غرناطة وأن أصحاب الأراضى والأعمال ظلوا متمسكين بالعاملين المسلمين لديهم حتى مطلع القرن ١٧ وأن طرد المسلمين كان عملا وجهته وأشرفت عليه مؤسسات بعينها ضد رغبة الشعب الإسبانى ويهمنا فى هذا الصدد أن عددا كبيرا من المسلمين الإسبان قد خرجوا عبر البرانس وتمركزوا فى جنوب فرنسا فكما خرج المسلمون الإسبان قاصدين السواحل الجنوبية للمتوسط، خرجوا كذلك إلى جنوب فرنسا (ول ديورانت: قصة الحضارة - عصر نابليون، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. أبو ظبى، المجمع الثقافى - مقدمة الترجمة العربية، ص ص ٢٢ - ٢٣)

أبقى بعد ذلك شك فى أن أوروبا فى مطلع العصور الحديثة لابد أن تكون قد تأثرت بالفكر الإسلامى وتفاعلت معه بشكل أكثر وضوحا؟ فقد غدا الإسلام بالنسبة لأوروبا بعد سقوط القسطنطينية وتمركز المسلمين فى شرق أوروبا أقرب إليها من حبل الوريد. وقد وجدنا هجرة إسلامية اضطرارية إلى جنوب فرنسا حيث اضطر المهاجرون هنا للتفرنس. كل هذا لا يجعلنا نستبعد تأثيرات إسلامية على الحركات الإصلاحية الدينية الأوروبية عامة (ول ديورانت، عصر نابليون، جـ١، ص ٢٣ - مقدمة الترجمة العربية)

ففى الجنوب الشرقى من فرنسا (الأقرب إلى إيطاليا حيث المقر البابوى) وجدنا التفاعل المتوسطى يأخذ منحى الالتصاق بالمسيحية الكاثوليكية

التقليدية، فخالف بذلك تفاعلا متوسطيا آخر،وجدناه منبعثا من جنوب غرب فرنسا متغلغلاً حتى أعماق باريس وما حولها ممثلا فى الجيرونديين، لنقرأ ما كتبه ول ديورانت عن هذا التفاعل المتوسطى واضح المعالم فى منطقة الفندى فى جنوب شرق فرنسا وفى مرتفعاتها الجبلية الوسطى ولنقارنه بما كتبه الكاتب نفسه (ديورانت) عن الاتجاه المتوسطى المختلف:

الحرب ضد الدين:

والآن، فقد كان هناك انقسام حاد بين أولئك الذين يعتبرون العقيدة الدينية هى سندهم النهائى فى الدنيا التى - بغيره - تغدو بلا غاية ولا معنى ومأسوية، وأولئك الذين يعتبرون الدين - على وفق تفكيرهم، خرافات مكلفة ومحبوكة لسد الطريق أمام العقل والحرية، وهذا الخلاف كان حادا فى الفندى the vendee وهى منطقة ساحلية بين اللوار Loire ولاروشيل La Rochelle حيث المناخ القاسى والأرض الصخرية الجدبة، وحيث الولادات والوفيات تجرى بشكل روتينى مكرر، مما جعل السكان فى غالبهم محصنين ضد أفكار فولتير ورياح التنوير. حقيقة إن أهل المدن والفلاحين قبلوا الثورة لكن عندما أعلنت الجمعية التأسيسية الدستور المدنى للإكليروس - مصادرة ممتلكات الكنيسة محولة القسس كلهم إلى موظفين فى الدولة - أيد الفلاحون قسسهم فى رفضهم الموافقة على هذا الدستور، فتحولت دعوة شبابهم للتطوع فى الجيش أو التجنيد الإلزامى فيه، إلى دعوة لإشعال النار فى الثورة. فلم يقدم أولادهم حياتهم لحماية حكومة كافرة؟ فالأولى هو أن يدافعوا عن قسسهم ومذابح كنائسهم ومعبودات أسرهم.

وعلى هذا ففى ٤ مارس ١٧٩٣ انفجر التمرد فى الفندى وبعد ذلك بتسعة أيام انتشرت فى الإقليم، وبحلول أول مايو أصبح هناك ٣٠,٠٠٠ متمرد مسلح، وشارك عدد من الموالين للملكية الزعماء القرويين فى تنظيم هؤلاء المتطوعين

فى كتائب منظمة، وقبل أن يتحقق المؤتمر الوطنى من قوتهم كانوا قد استولوا على توار thouars وفونتنى وسومور saumur وأنجر angers وفى أغسطس أرسلت لجنة الأمن العام إلى الفندى جيشا بقيادة الجنرال كليبر (كليبه) Kle- ber مزودا بتعليمات بتدمير قوات الفلاحين وتدمير المناطق التى تؤيدهم كلها. وهزم كليبر جيش الكاثوليك فى شولت cholet فى ١٧ اكتوبر ولاحقه حتى سافينى savenay فى ٢٣ ديسمبر، وجرى تعيين مندوبين عسكريين من لجنة الأمن العام فى أنجر Angers ونانت Nantes ورينز Rennes وتورTours وزودتهم بأوامر بإعدام أى واحد من أهل فندى يحمل السلاح. وفى غضون عشرين يوما تم إعدام ٤٦٣ فى أنجر angers أو بالقرب منها. وقبل إخضاع الفنديين على يد المارشال هوش Hoche (فى يوليو ١٧٩٦) كان نصف مليون شخص قد فقدوا حياتهم فى هذه الحرب الدينية الجديدة.

وفى باريس كان عدد كبير من السكان غير مبالين بأمر الدين ولهذا سهل الاتفاق بين الجبليين (the Mountain اليسار) والجيرونديين فقد تعاونا معا فى تقليص قوة الإكليروس وعملا معا على إنشاء تقويم وثنى Pagan Cal- endar، وشجعت الثورة زواج القسس بل وصدر مرسوم بإبعاد (نفى) كل أسقف امتنع عن الزواج. وفى حماية الثورة تم تزويج ألفى قس وخمسمائة راهبة وكان ممثلو لجنة الأمن العام يعمدون إلى بعض الإجراءات المناهضة للمسيحية فى عملهم، وقد أمر أحدهم بسجن قس وألا يفرج عنه حتى يتزوج. وفى نيفر Nev- ers أصدر فوشى Fouche أحكاما صارمة فيما يتعلق بالقسس: لابد أن يتزوجوا، ولابد أن يعيشوا ببساطة غير متزمتة لتكن حياتهم كحياة الرسل(**) Apostles ولابد أن يمتنعوا عن ارتداء ثياب الكهنوت وأن يمتنعوا عن ممارسة الطقوس الدينية خارج الكنائس، وتم إبطال الطقوس الكنسية فى أثناء الجنائز ولابد أن تنقش على المقابر عبارة الموت نوم أبدى وأمر (فوشى) رئيس الأساقفة وثلاثين قسا أن يطرحوا قلنسواتهم الدالة على هويتهم الدينية ليضعوا فوق رؤوسهم غطاء الرأس الثورى الأحمر. وفى موثين Moutin ركب (فوشى) على رأس موكب ليحطم فى طريقه الصلبان المجردة كلها والصلبان

التى تمثل المسيح مصلوبا والصور والتماثيل الدينية كلها وفى كليرمونت - فران Clermont - Ferrand أعلن كوثو Couthor أن دين المسيح قد تحول إلى دجل مالى (خداع للحصول على المال)، واستأجر طبيبا لإجراء تجارب أمام الجماهير ليثبت أن ظهور دم المسيح بشكل إعجازى فى الزجاجة التى تقدمها الكنيسة ليس سوى زيت التربنتينة مصبوغا باللون الأحمر(***) Colored Turpentine وألغى المرتبات التى تدفعها الحكومة للقسس وصادر ما فى الكنائس من آنية ذهبية وفضية، وأعلن أن الكنائس التى لا يمكن أن تتحول إلى مدارس يمكن - بموافقته - أن تهدم ليبنى مكانها مساكن للفقراء، وأعلن لاهوتا جديدا (نظرية دينية جديدة) تحل فيها الطبيعة محل الرب God، وتصبح السماء (المقصود الآخرة أو ما بعد الموت) مكانا لجمهورية مثالية (دولة مثالية - يوطوبيا) يصبح بها الناس كلهم صالحين.

وكان زعماء المعركة ضد الدين هم هيبير Hebert فى مجلس مدينة باريس وشوميت Chaumette فى كومون باريس. وبسبب الحماس الذى أثارته خطب شوميت وصحافة هيبير اقتحمت جموع من الطبقة الثالثة الدنيا (السانس كولرت) دير القديس دينيس (سان دينى) Abbey of St Denis فى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣ وأفرغوا توابيت أفراد الأسرة المالكة المدفونين فيها، وصهروا معادن هذه التوابيت لاستخدامها فى صنع أسلحة للحرب، وفى ٦ نوفمبر وافق المؤتمر الوطنى رسميا على إعطاء كومونات فرنسا الحق فى نقد الكنيسة المسيحية، وفى ١٠ نوفمبر راح رجال ونساء قادمون من أحياء الطبقة العاملة ومن النوادى (المراكز الأيديولوجية) فى باريس يلوحون فى الشوارع بطريقة هزلية بالملابس التى يرتديها رجال الدين الكاثوليك ويسخرون من طقوسهم، ودخلت جموعهم المؤتمر الوطنى وفرضوا على أعضائه الحضور فى المهرجان المسائى فى كاتدرائية نوتر - دام Notre - Dame التى أصبح اسمها معبد العقل the Temple of Reason وهناك تم تنظيم طقوس جديدة حيث ارتدت الآنسة كاندل Mile Candelle ممثلة الأوبرا علم الثورة الثلاثى الألوان ووضعت فوق رأسها الكاب الأحمر، ووقفت باعتبارها ربّة الحرية وراحت نسوة

مقنعات يحطن بها ويغنين «نشيد الحرية» الذى ألفه لهذه المناسبة مارى جوزيف دى شـينيـه Marie - Joseph de Chenier ورقص المـتـعـبـدون وغنوا فى صحن الكنيسة، بينما راح المستفيدون من الحـرية يحتفلون بممارسة الحب (الجنس) فى المصلات الجانبية فى الكنيسة، كما ذكر كتاب التقارير المعادى للثورة) وفى ١٧ نوفمبر تم إحضار جان - بابتست جوبل Jean - Baptiste Gopel أسقف باريس، بناء على طلب الجماهير، ليمثل أمام المؤتمر الوطنى ليشجب منصبه ويتنكر له ويسلم لرئيس المؤتمر صولجانه (صولجان الأسقف ذا الدلالة الدينية Crozier وجرسه ring وأن يضع فوق رأسه الكاب الأحمر) الدال على الحرية وفى ٢٣ نوفمبر أمر الكومون بإغلاق الكنائس كلها فى باريس.

ومن ناحية أخرى كان المؤتمر الوطنى يرى أنه لا يجب المغالاة فى تأكيد دوره فى العمل ضد المسيحية. وكان أعضاء المؤتمر جميعا - تقريبا من اللاأدريين agnostics والمؤمنين بوحدة الوجود أو من الملحدين(المقصود كما سبق القول غير المؤمنين بالثالوث والطقوس المسيحية) ومع هذا فإن كثيرين منهم تشككوا فى مدى حكمة إثارة الكاثوليك المخلصين الذين كانوا يشكلون الأغلبية، وكان كثيرون منهم مستعدين لحمل السلاح ضد الثورة وكان بعض الأعضاء مثل روبيسبير وكارنو Carno قد شعروا أن الدين هو القوة الوحيدة التى يمكن أن تمنع تكرار حدوث التمرد الاجتماعى ضد عدم المساواة المبدأ عميق الجذور جدا فى الطبيعة لدرجة يصعب معها إزالته بالتشريعات. واعتقد روبيسبير أن الكاثوليكية كانت استثمارا منظما للخرافة لكنه رفض الإلحاد باعتباره افتراضا مغرورا وقحًا باستحالة المعرفة، وفى ٨ مايو سنة ١٧٩٣ كان قد أدان الفلاسفة Philosophes باعتبارهم منافقين احتقروا العامة وراحوا يلتمسون المنح من لدن الملوك. وفى ٢١ نوفمبر قال أمام المؤتمر الوطنى وكانت مهرجانات معاداة المسيحية قد بلغت ذروتها فى هذا الوقت.

كل فيلسوف وكل شخص يمكنه أن يعتقد من أفكار الإلحاد ما يحلو له. وأى شخص يرغب فى أن يجعل هذا الفكر جريمة متهم لكن الرجل العام (صاحب

المسئولية) أو المشرع إذا ما تبنى هذه الأفكار الإلحادية فإنه غبى. بل إن غباءه يتضاعف مائة مرة عن غيره..

فالإلحاد ارستقراطى، ففكرة الموجود الأعظم (الله) الذى يرى ويعلم كل شئ والمطلع على كل ما يناقض الطهارة، ويعاقب على الجرائم الكبرى هى فكرة الشعب فى الأساس (فكرة شعبية) إن هذه الفكرة هى التى تمثل شعور أوروبا بل والعالم. إنها فكرة الشعب الفرنسى التى تمثل مشاعره وإحساسه. إن هذه الفكرة (وجود موجود أعظم) لا علاقة لها بالقسس ولا بالخرافة ولا بالطقوس. إنها فقط مرتبطة بقوة لا يدركها أحد (مبهمة لا يمكن سبر أغوارها).. إنها فكرة مرهبة للآثمين وراحةواستقرار للمتمسكين بالفضيلة.

وهنا كان دانتون متفقا مع روبيسبير: إننا لا ننوى هدم صروح الخرافة لنقيم حكم الإلحاد: إننى أطالب بإنهاء هذه الحفلة التنكرية ضد الدين فى هذا المؤتمر الوطنى

وفى ٦ ديسمبر سنة ١٧٩٣ أعاد المؤتمر الوطنى تأكيده على حرية العبادة وضمن حماية الطقوس الدينية التى يقوم عليها قسس موالون، واعترض هيبير Hobert ذاكرا أنه هو أيضا يشجب الإلحاد لكنه انضم للقوى التى تهدف إلى تقليص شعبية روبيسبير. لقد أصبح روبيسبير الآن يعتبره عدوا لدودا وراح ينتهز الفرص لتدميره.

فحتى روبسبير أدرك أنه لا مناص من الدين فراح يعمل على إعادة «الله» إلى فرنسا، فمحاولة إحلال المذهب العقلى rationalism محل المسيحية أثارت الفرنسيين ضد الثورة (قصة الحضارة - عصر نابليون، جـ١ ص ١٨٠)، بل إن روبيسبير ترأس فى ٨ يونيو سنة ١٧٩٤ مهرجانا للاحتفاء بالموجود الأسمى Fast of the Supreme Being (p.١٨١)

«وكانت هناك هجرات إسلامية إلى جنوب فرنسا على شكل موجة جماعية كبيرة العدد نتجت عن طرد العرب المسلمين والإسبان المسلمين من أسبانيا،

ويبدو أن هؤلاء كانوا قد تحولوا إلى المسيحية منذ قرنين خشية القمع، ولكنهم استمروا على دينهم الإسلامى سرا.

علم ملك أسبانيا ـ فيليب الثالث ـ أن هؤلاء يمارسون شعائر الدين الإسلامى سرا وأنهم يحتفلون بالأعياد الإسلامية فأمر بمغادرتهم إسبانيا وأصدر مرسوما بهذا فى يناير (كانون الثانى) سنة ١٦١٠ فهاجر ٥٠٠,٠٠٠ (نصف مليون) إلى بلاد المغرب العربى... وتوجه ١٥٠,٠٠٠ إلى الشمال أى إلى فرنسا .. واستقر عدد كبير منهم فى الجنوب الفرنسى.. وتوجد مخطوطات كثيرة تتحدث عن هذه الحلقة من التاريخ الإسلامى فى فرنسا. لقد كتب المركيز فوسِلْ إلى ملك فرنسا: تعلمون جلالتكم أن جميع لاجئى إسبانيا قد عبروا الحدود ويصل عددهم إلى ١٣٣,٠٠٠، وفى مذكرة أرسلها المركيز فيزيو إلى المُلك الفرنسى: اليوم ٢٨ ديسمبر ١٦١٠ وصلتنى رسالة من الماركيز دوسان چيرمان الذى يبحث عن وسائل لنقل عدد من المسلمين الأندلسيين الذين يرجون اللجوء إلى فرنسا» وفورًا أصدر الملك الفرنسى أوامره باستقبال هؤلاء المهاجرين استقبالا حسنا، بوصفهم لاجئين لا غزاة.. (فرنسا والأديان السماوية تأليف حسين عبد القادر، نشر مركز الدراسات العربى الأوروبى) .

وتشير بعض المراجع التى كتبها فرنسيون إلى هجرة مسلمين إلى جنوب فرنسا قادمين من إسبانيا بعد سقوط غرناطة، وانهم اعتنقوا المسيحية «تقية» .. وبمتابعة الفكرة نجد أن الجيرونديين أثناء الثورة الفرنسية يسعون إلى إلغاء نوادى القمار وإلى تحريم الخمر، وأصدرت الثورة بالفعل مرسوما بذلك، لكنّه أصبح ـ بعد ذلك ـ مجرد حبر على ورق (ديورانت، قصة الحضارة، عصر نابليون، جـ١، ص ٢٥ نشر المجمع الثقافى فى أبى ظبى)

وحتى ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ كان أكثر الجماعات نشاطا فى الجمعية التشريعية هم المنتمين إلى دائرة (محافظة) جيروند Gironde لذا سمّوا بالجيرونديين.

إنهم لم يكونوا حزبًا منظمًا، ولم يكونوا من الجبليين Montagnards (أى لم يكونوا من اليسار الذى يمثله أساسًا اليعاقبة والكوردليير) ولكنهم كانوا جميعًا (تقريبا) من مناطق ذات نشاط صناعى وتجارى . من كان Caen ونانت Nantes وليون Lyon وليموج Limoges ومرسيليا Marseille وبوردو Bordeaux، فسكان هذه المراكز النشطة كانوا قد تعودوا على الحكم الذاتى، وكانوا يتحكمون فى كثير من أموال المملكة وتجارتها الداخلية والخارجية.. وكان زعماء الجيرونديين كلهم تقريبا أعضاء نادى اليعاقبة وكانوا متفقين مع معظم اليعاقبة الآخرين فى معارضة الملكية (بفتح الميم واللام) والكنيسة، لكنهم كانوا ممتعضين من أن تحكم باريس وجماهيرها بلاد فرنسا واقترحوا بدلا من ذلك أن تكون فرنسا جمهورية فيدرالية تتمتع دوائرها (محافظاتها) بقدر كبير من الحكم الذاتى.. ومن الجيرونديين من عمل بجد على تحرير العبيد وأسس جمعية الأصدقاء السود Societe des Amis Noris وقد أطلق على الجيرونديين فى فترة من الفترات اسم البريسوتين Brissotins نسبة إلى بريسوت Brissot مؤسس جمعية الأصدقاء السود الآنف ذكرها..» (قصة الحضارة عصر نابليون، ص ١٠٢ - ١٠٣) واتفق الجيرونديون بالإضافة لكوميون باريس واليعاقبة.. على أنهم يأملون أن يكون الإخلاص للجمهورية الفرنسية الشابة هو دين الشعب وأن يحلوا مبادئ: الحرية والمساواة والإخاء محل الأب والابن والروح القدس وأن تعزيز الثالوث الجديد يمكن أن يكون هو الهدف المهيمن للنظام الاجتماعى والمعيار النهائى للأخلاق (قصة الحضارة - عصر نابليون - جـ١، ص ١١٦).

- قاوم الجيرونديون اقتراض الحكومة قروضا جبرية أى قروضا بالأمر من الأثرياء نسبيا - تلك القروض المفروضة التى أدت إلى ضعضعة موقف البورجوازية الصاعدة خاصة فى الفترة من ٢٠ إلى ٢٥ مايو سنة ١٧٩٣، وقد أدى موقف الجيرونديين هذا إلى تعميق الصراع بينهم وبين اليسار (الجبليين) فى المؤتمر الوطنى (p. 137)

- ورغم أن الجيروندين كانوا من بين فصائل الثورة الفرنسية إلا أنهم حاربوا مصادرة الثروات بل واعتبرهم مارا Marat الشهير حماة للأثرياء (ص ١٣٧)

وقد تصدّى السانس كولوت (الذين لا يرتدون سراويل قصيرة وهم الشريحة الدنيا من الطبقة الثالثة) للجيرونديين عندما قصدوا لدانتون «حاميهم الأثير لديهم» لقد كان الجيرونديون من المطالبين بعدم الإسراف فى القتل (ص ١٣٩) وطالب مارا بطرد الجيرونديين من المجلس الوطنى باعتبارهم خونة الثورة البورچوازيين Bourgeais betrayers of the revolution (ص ١٣٩)

كان الجيرونديون من أنصار عدم تحديد سقف لأسعار الحبوب فى كل مرحلة من مراحل انتقالها من المنتج إلى المستهلك ورغم اعتراضهم فقد أصدر المؤتمر الوطنى مرسوما بذلك (ص ١٣٩)

لم يكن الجيرونديون يميلون إلى ممالأة الجماهير، وإنما كانت لهم مقاييسهم الخاصة التى لا ترضى الدهماء، رغم أنهم - أى الجيرونديين - كانوا من فصائل الثورة الفرنسية الفاعلة، ففى ٢٧ مايو ١٧٩٣ طالب مارا Marat فى المؤتمر الوطنى بقمع لجنة الجيرونديين الآنف ذكرها «لأنها معادية للحرية ولأنها تميل إلى الحث على معارضة الشعب وقمعه.. وهذا لأنكم سمحتم بارتفاع الأسعار ارتفاعا فظيعا» وبالفعل فقد صوّت المؤتمر الوطنى على إلغاء لجنة الجيرونديين بأغلبية ٢٧٩ ضد ٢٣٨ (ص ١٤١)

وعارض الجيرونديون المبدأ القائل بأن حق الانتخاب لابد أن يقتصر على السانس كولوت (الطبقة الثالثة) (ص ١٤١)

كان الجيرونديون حجر عثرة أمام كل المحاولات الشيوعية فى سياق الثورة الفرنسية (ص ١٥٣)

أدار اليعاقبة (ومن بينهم الجيروندیون) انتخابات الجمعية الثالثة (المؤتمر الوطنى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ - ١٦ أكتوبر ١٧٩٥ الذى يعتبر ذروة المد الثورى وانحداره في الوقت نفسه.. وفى هذا المؤتمر كان عدد الجيروندیين ١٨٠ (مائة وثمانين) عضوا من بين ٧٥٠ (سبعمائة وخمسين) عضوا هم أعضاء المؤتمر وكان الجيروندیون منظمين ومتعلمين وفصحاء وبلغاء وهم الذين تولوا القيادة فى مجال التشريع (ص ١٢٦) إذ أعلنوا احترامهم للملكيّة الخاصة معارضين تيارا قويا ينادى بمصادرة الملكيات الكبيرة وتوزيعها على الشعب. لقد اتخذوا موقفا وسطا بين اليسار (الجبليين) والمعتدلين (أعضاء السهل) واتفقوا جميعا على إعلان الجمهورية الفرنسية الأولى فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢، وفى اليوم نفسه اتفقوا على إصدار مرسوم بإعلان إبطال التقويم المسيحى (الميلادى) فى فرنسا وممتلكاتها ليحل محله تقويم ثورى تبدأ فيه السنة الأولى من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ إلى ٢١ سبتمبر ١٧٩٣ وأن تسمى الشهور على وفق الحالة المناخية النمطية: شهر قطف العنب Vendemiare وشهر الضُباب Brumaire وشهر الصقيع Frimaire.. إلخ

وتم تقسيم كل شهر إلى ثلاثة أقسام ينتهى كل قسم بيوم أسموه ديكأدى dec-ade أى يوم الراحة بدلا من يوم الأحد وبذا تخلصوا من نظام الأسابيع (النظام السبتى)

لكن الجيروندیين لم يكونوا من أنصار قتل الملك الفرنسى لذا اهتز موقفهم بعد إعدامه (ص ١٣٥)

- مُنع القمار فى فرنسا بمراسيم صدرت سنة ١٧٩١ و ١٧٩٢، لكن هذه المراسيم لم تكن مجدية فقد تضاعفت صالات القمار السرية maisons de Jeu حتى بلغت فى سنة ١٧٩٤ حوالى ٣٠٠٠ صالة فى باريس وحدها (قصة الحضارة، عصر نابليون، جـ١، ص ٢٧٥)

لا جدال إذن فى أن كل العناصر فى الدائرة المتوسطية قد تشابكت وتضافرت فى تكوين شخصيتها بل وفى مسار أحداثها السياسية وغير السياسية، ولا جدال فى أن انتماء مصر للدائرة المتوسطية - وهو انتماء جغرافى مادى ملموس - لا يفقدها أى عنصر من عناصر ثقافتها، فالدائرة المتوسطية أكثر من كونها مجرد دائرة جغرافية.

المبحث الثانى

من التفاعلات الاقتصادية المتوسطية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

دور المسلمين فى تشكيل اقتصاد امبراطوريتى جنوة والبندقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

(نشر فى المجلة التاريخية المغربية. تونس، نوفمبر ١٩٨٦ عدد ٤٣ ـ ٤٤)

جرت عادة الباحثين فى التاريخ الأوروبى الحديث خاصة والتاريخ الحديث بوجه عام، أن يتناولوا القوى الأوروبية باعتبارها قوى فاعلة مؤثرة فى عالمنا الإسلامى، ورغم ما فى هذا من الصحة؛ إلا أن المؤكد أن العالم الإسلامى قد أثر أيضا تأثيرات فعالة فى التاريخ الأوروبى الحديث، فقد أعقب الخروج النهائى للمسلمين من الأندلس فى مطلع القرن السابع عشر (١٦٠٩) إنهيار كامل فى اقتصاد إسبانيا وكان خروج المسلمين - وكانوا طاقة عاملة لها شأنها - أحد أسبابه الرئيسية. وكانت حركة جهاد البحر والحروب العثمانية فى البحر

المتوسط فى القرن السادس عشر، أحد العوامل الرئيسية التى وجهت الجنويين (أهل جنوة) للعمل على استثمار أموالهم فى أسبانيا والبرتغال، وكان لهذا نتائج خطيرة فى كل من جنوة والبرتغال وإسبانيا. وكان الضغط الإسلامى على شرق أوروبا أحد أسباب استقلال فرعى الهبسرج (فرع فى إسبانيا والآخر فى الإمبراطورية)

وهذا البحث يؤكد هذه الحقيقة العامة وهى أثر المسلمين فى صياغة التاريخ الأوروبى الحديث، فهو يتناول أثر حركة جهاد البحر وأثر الدولة العثمانية وأثر المسلمين الخارجين من الأندلس فى تشكيل اقتصاد امبراطوريتى البندقية وجنوة. وقد اقتصرت على الجوانب الاقتصادية فقط إلا إذا كانت الأمور الأخرى، غير الاقتصادية، تمس الموضوع مسا وثيقا.

لم تقتصر البندقية طوال تاريخها على مجموعة جزرها فى الأرخبيل، وبما يظاهر هذه الجزر الأرخبيلية التى تتخللها مياه ضحلة، فى البر الإيطالى[1] وإنما كونت امبراطورية ضخمة استمر جانب منها قائما حتى نهايتها - أى البندقية - فى نهاية القرن الثامن عشر[2]. وكان الاستعمار البندقى ذا طابع سلمى، فكما يقول جان موريس: «لم يكن البنادقة مصدرى أيديولوجيات، ولم يكن لهم رسالة، ولم يكونوا بناة امبراطوريات ذات طابع دائم كالرومان، ولم يكونوا حالمين كالأسبان. أنهم أولا وقبل كل شىء شعب مال فكل بندقى كما كتب البابا بيوس الثانى فى القرن الخامس عشر ما هو إلا عبد للاستعمار التجارى الوسخ (Sordid)[3] وذلك على حد تعبير البابا.

ولم يكن عدد البنادقة طوال مراحل التاريخ يسمح لهم بتكوين امبراطورية عسكرية راسخة الأقدام عميقة الجذور، يمكنهم صبغها بطابعهم القومى، وإنما كانوا يتخلّون ببساطة عن أى مركز من مراكزهم إذا ما قلت جدواه الاقتصادية.

أنها إمبراطورية متحركة إن صح هذا التعبير، ويقدم لنا جان موريس وصفا أكثر دقة فيقول: «إنها امبراطورية السواحل والجذر المتناثرة على طول طرق تجارة الجمهورية للشرق، ولم يكن عدد سكان البندقية يزيد فى وقت من الأوقات عن ٤٠,٠٠٠ لكنهم كانوا متناثرين ممتدين من الأدرياتيك غربا إلى قبرص شرقا، وشمالا ما امتد بحر إيجه (Aegean) ولم يحدث أبدا أن كانت ممتلكاتهم محددة أو توقفت عند حد معروف. لقد كانت فى تغير مستمر من حيث امتدادها ومساحتها وقيمتها(٤) وإذا كانت هذه هى طبيعة تكوين الامبراطورية البندقية، فليس غريبا إذن ما ذكره بعض الباحثين الغربيين المحدثين من أن البندقية كانت تعتبر فى حكم الساقطة، منذ سقطت القسطنطينية(٥) أو بتعبير أكثر دقة يعتبر منتصف القرن الخامس عشر هو بداية النهاية لامبراطورية البندقية رغم مظاهر الانتعاش التى بدت فيها بعد ذلك(٦) ومع هذا يذكر مؤرخ آخر هو ليبر (Lybyer) أن التمزق الفعلى لاقتصاد البندقية، وبداية انهيار تجارتها لم يبدأ إلا فى مطلع القرن السادس عشر عندما استخدم البرتغاليون الطريق الجديد للهند حول أفريقيا مما عاق تدفق البهار عبر الشرق فأوقع بتجارة البندقية أذى بليغا(٧) والواقع أن هذا الرأى قد نقضه باحثون كثيرون، ومن هؤلاء لين (Lane) الذى يذكر أن كشف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستخدامهم له لم يلحق باقتصاد البندقية أى أذى ولم يعرضها لأخطار حقيقية إذ لم ينخفض حجم تجارة البندقية حقيقة إلا فى نهاية القرن السادس عشر فيما يرى هذا الباحث(٨) ويرى باحثون آخرون أن انهيار اقتصاد البندقية منذ أوائل القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن السابع عشر لا يقع إلا على عاتق بريطانيا، وعلى هذا فهم لا يضعون على عاتق البرتغاليين والعثمانيين ومجاهدى البحر المسلمين إلا عبئا يسيرا(٩) ويعلل هذا بدخول التجار البريطانيين مجال البحر المتوسط خاصة تجار الملابس الصوفية، فكانوا منافسين للبنادقة الذين بارت تجارتهم نتيجة هذه المنافسة.

وأمام هذه الآراء المتباينة تباينا شديدا لابد لنا من الاستقصاء التاريخى لمعرفة وجه الحقيقة، كما أن الأرقام والمصادر الأرشيفية تساعدنا فى مثل هذه الحالات على حسم الحقيقة التاريخية. لذلك لابد من التعرض لممتلكات البندقية بشئ من التفصيل مبينين ما آلت إليه هذه الممتلكات.

لقد كان للبنادقة فى البحر الأيونى[١٠] عدة مراكز منها أبيروس وأكارنانى (Acarnanie) وأتوليا (Etolie) بما فيها أرتا (Arta) ودورازو، وكانت تلك فى حوزتهم منذ ١٢٠٤، وكان لهم أمام الساحل كورفو (Corfu) وكيفالونيا وسانت موروزانطه وشبه جزيرة المورة[١١] كلها بما فيها مودرن لكدومونيا (Lecedemone) وكاليفرت (Calarryta) وأوستروفو (Ostrovo) وبتراس (Patras) والجزائر الواقعة جنوب الأخبيل وغربه وأهمها ناكسوس (Nacsos) وأندروس (Andros) ويوبيا (Eupea)[١٢] وكان لهم على الساحل الأوربى للدردنيل وبحر مرمرة جليوبولى (Galliopoli)[١٣] ورودستو (Rotestow) وهراقلية وكان لهم فى داخل تراقيا بعض المدن وأهمها أدرنة، بل وكان لهم ثلاثة أثمان القسطنطينية وكنيسة صوفيا وجزيرة كريت التى حصلوا عليها بالشراء من بونيفاس قائد الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠١ وهى الحملة التى تحولت إلى القسطنطينية. وقد باع جزيرة كريت التى كان قد أعطى حكمها، للبنادقة. لكل هذا كان الدوق البندقى يحمل لقب (صاحب ربع ونصف ربع الامبراطورية البيزنطية) وكان هذا اللقب شائعا ومعتمدا سنة ١٣٤٦[١٤] لكن كما سبق القول لم يكن الاحتفاظ بأى من تلك الممتلكات مقرونا كثيرا بكرامة قومية أو وطنية بمعنى أن البنادقة أنفسهم كانوا على استعداد كامل للتخلى عن بعضها ما دام مكلفا أو لايدر قدرا كافيا من الربح. فعلى سبيل المثال نجد البندقية تتنازل بمحض ارادتها عن بلاد ومناطق البلوبونيز (المورة) ولم تطلب المزيد، طالما كان باب التجارة فى هذه المناطق مفتوحا على مصراعيه، ولم تحتفظ إلا بثغرى

مودرن وكورون، لمراقبة تجارة الشرق، لذا فقد سميتا بعينى حكومة البندقية(١٥) كما كانت البندقية تلجأ تخلصا من النفقات إلى اقطاع بعض ممتلكاتها لبعض أشرافها بصفة وراثية لتقليل النفقات فى مقابل خضوعهم للجمهورية وعملهم على ترويج مصالحها التجارية، كما كان حاصلا فى كورفو على سبيل المثال(١٦)،(١٧) وقد حاولت البندقية ربط هذه المستعمرات التجارية بنظام سياسى يضمن هيمنتها عليها(١٨) ولعل كولز يعتبر من أكثر الباحثين موضوعية فى تحليل أثر الوجود الإسلامى فى البحر المتوسط ممثلا فى العثمانيين من ناحية والجهاد البحرى الإسلامى من ناحية أخرى على اقتصاد البندقية بما أتيح له من وثائق فى الأرشيفات البندقية وباعتباره مهتما بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية للتاريخ. يذكر كولز (Coles) أنه «بالنسبة لحكومة البندقية، كان نمو القوة العثمانية يمثل مشكلة خطيرة، ولكنه لم يكن يمثل بالضرورة مشكلة ذات طابع صليبى، فقد قدم البنادقة مساعدات كثيرة للعثمانيين لكسب اعترافهم وضمان عدم الاعتداء عليهم، فلم يحرم العثمانيون البنادقة من ممارسة أعمالهم التجارية فى المناطق التابعة لهم إلا فى فترات بسيطة. ففى سنة ١٥٣٢ على سبيل المثال عندما اعتزم السلطان(١٩) مهاجمة ممتلكات شارل الخامس الإيطالية، وكان - أى السلطان - قلقا، بسبب عدم توفر المعلومات الكافية لديه عن الاستعدادات الإسبانية المضادة، استدعى بيترو زينو سفير البندقية فى اسطنبول، وأسمعه هذه الكلمات:

«أكتب حالا لسيدك (Your Singor) ليكشف لنا عن تحركات السمك فى قاع البحر وليعرف لنا أيضا السفن التى يجهزها الإسبان فى موانيهم.. أكتب حالا».

ويستمر كولز (Coles) قائلا «ففى هذه الحالة وفى حالات أخرى كثيرة، أثبت البنادقة أنهم غير عاطفيين عندما يكونون مضطرين لتبادل المعلومات مقابل

ميزات اقتصادية(٢٠) «لقد آمن البنادقة أن الدبلوماسية وحدها لا يمكن أن تبقى على جمهوريتهم، وكان أخشى ما يخشونه هو أن يجروا إلى دخول حرب مدمرة ضد العثمانيين، لذا فقد كانت الاستراتيجية التى تبنتها البندقية تتميز بالرغبة فى الحفاظ على المصالح الذاتية وكانت ترتكز على أساسين: أولهما، تحصين المواقع الهامة فى ممتلكاتها فيما وراء البحار لتمكينها من مقاومة حصار طويل، وفيما يتعلق بالحروب البحرية فقد بنت البندقية استراتيجيتها على أساس تفضيل الحروب القصيرة الأمد والحاسمة فى نفس الوقت. نظرا لفقر الجمهورية فى الموارد المادية، مما يجعل التركيز على المهارات الفنية والتقنية والإدارية عاملا فعالا فى إحراز نصر سريع، وانطلاقا من هذا النصر السريع يمكن للدبلوماسية أن تحقق أكبر قدر من المكاسب. وقد اتضحت قيمة التحصينات الفعالة سنة ١٥٣٧ عندما اضطر العثمانيون لرفع الحصار عن كورفو (Corfo)(٢١) بعد اجتياح الجزيرة، إذ أنهم رغم نجاحهم فى اجتياح الجزيرة إلا أنهم فشلوا فى إخضاع قلعة البنادقة قبل حلول فصل الشتاء. وقد فقدت البندقية يوبيا (Eupea)(٢٢) سنة ١٤٧٠، ولكنها احتفظت بقبرص سنة ١٤٨٩، وأستعادت كريت والجزر الواقعة غرب اليونان ومستعمراتها على ساحل دلماشيا وفى المورة (Moroa) ولم تفقد إلا مناطق صغيرة لصالح العثمانيين فى قبرص ١٥٧٠، وظلت محتفظة بكريت حتى سنة ١٦٦٩ رغم الحصار الذى دام ٢٤ عاما»(٢٣)

ويذكر كولز أيضا أنه «قد جرت محاولات لتنفيذ استراتيجية البندقية البحرية بشكل واضح خلال الحروب التى جرت فى أواخر الثلاثينات، ومرة أخرى فى أواخر السبعينات من القرن السادس عشر. فعندما آثار أندريا دوريا(٢٤) قادة البندقية برفضه الانضمام للأسطول المتحالف فى المعركة. وكان القادة البنادقة شغوفين باستغلال الفرصة النادرة لإحراز نصر سريع على

القوات العثمانية التى وان كانت كثيرة العدد إلا أنها كانت فيما يبدو غير منظمة ولا بارعة، إلا أن دوريا[٢٥] كان مشغولا بالدفاع عن إيطاليا الإسبانية وحوض البحر المتوسط الغربى، لهذا قرر الا يخاطر بأسطوله فى سبيل (نصر مشكوك فيه) وحتى لو تحقق هذا فان إسبانيا (لن يمكنها استغلاله) وهى القوى التى يعمل لحسابها. ويشبه هذا ما حدث فى آخر القرن، فبعد أن حقق الحلف المقدس انتصارا بارعا على العثمانيين فى ليانتو ١٥٧١ تزايدت رغبة البنادقة فى عدم الاستمرار فى الحلف إذ انسحبت منه فعلا سنة ١٥٧٣[٢٦].

وقد فقدت البندقية قبرص فى القرن السادس عشر وكريت فى القرن السابع عشر، وهذا يجعل السؤال القائل: إلى أى مدى كان الانهيار الاقتصادى الذى حاق بالجمهورية والذى ظهر جليًا واضحا فى بواكير القرن السابع عشر وطواله، كان من نتائج التوسع العثمانى.

مرة أخرى نعود لتحليلات كولز، فنجده يقول: «لقد كان المؤرخون يرجعون هذا الانهيار إلى الكشوف الجغرافية واكتشاف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح المؤدى إلى مراكز البهار فى الهند والشرق الأقصى. وقد أدى هذا بالفعل إلى أضرار للبندقية خلال الحقبة الأولي من القرن السادس عشر، لكن البنادقة بما جبلوا عليه من مهارة قد استعادوا مركزهم فى هذه التجارة، فقد شهد منتصف القرن السادس عشر إحياء طرق البهار عبر الشرق الأوسط، فخلال الفترة من ١٥٦٠ إلى ١٥٦٩ تلقت الإسكندرية شحنات من الفلفل كانت مساوية فى حجمها للشحنات التى وصلت لشبونة، واستمر البنادقة فى تحقيق أرباح من هذه التجارة، وليس أدل على ذلك من أن جماعة تجار جنوب ألمانيا قد أقاموا فى البندقية وانشأوا بها وكالات لتنظيم إمداد وسط أوروبا بالبهار، وقد دفعوا أكثر من ٤٠,٠٠٠ دوكية (Ducats) كضرائب لجمهورية البندقية خلال

الفترة من ١٥٦١ إلى ١٥٦٥ فى مقابل ١٨,٠٠٠دوكية دفعت سنة ١٤٩٠ قبل افتتاح طريق رأس الرجاء الصباح. وقد بين لنا الباخث بيير سارديلا (Sardelia) أن بناء السفن والصناعات الخزفية وتكرير السكر والطباعة والصناعات الزجاجية قد انتشرت وازدهرت فى البندقية خلال القرن السادس عشر، كما كان السكان قد ارتفع عددهم بما يمثله منحنى إحصائى سليم من ١١٥,٠٠٠ سنة ١٥٠٩ إلى ١٦٨,٠٠٠ سنة ١٥٦٣، إلا أنه فى مطلع القرن السابع عشر بدت شواهد الانحطاط والاضمحلال الاقتصادى. ففى سنة ١٦١٢ كتب السفير الانجليزى فى البندقية يقول:

وحتى بضائع هذه المدن التى جرت العادة بحملها إلى سوريا قد بدأت تضمحل فلعدة سنوات ماضية كان متوسط التصدير إلى سوريا يتراوح ما بين ٢٤,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ حمل من الملبوسات، إلا أنه فى السنة الأخيرة (١٦١١) لم يتم تصدير إلا ١٥,٠٠٠ ويعتقد أنه فى السنة القادمة سينخفض حجم المصدر إلى ١٠,٠٠٠ أو ١١,٠٠٠»(٢٧).

ويذكر كولز أيضا أنّ وثائق البندقية المعاصرة لهذه الفترة «تقدم لنا تأكيدا لهذا الحكم الذى أسلفناه، وتؤكد بنفس القدر أن مشاركة البندقية فى الحرب القبرصية فى الأعوام من ١٥٧٠ إلى ١٥٧٣ هى المسئولة فى المقام الأول عن تردى أوضاع البندقية الاقتصادية. فقد حرم فقدان قبرص، البندقية من مركز هام لإنتاج الغلال والنبيذ، كما حرمها من ميناء هام كانت ترتاده سفنها التجارية فى طريقها إلى الموانى الشامية والمصرية للتموين والاستجمام(٢٨).

وثمة دور آخر غير مباشر أسهم العثمانيون من خلاله فى تشكيل اقتصاد البندقية وغيرها من الدول الإيطالية، فقد أدت حاجة الجنود العثمانيين إلى الملابس، إلى اعتبار سوق البحر المتوسط سوقا رائجا لهذه البضاعة، ففى

سنة١٥٧٣ على سبيل المثال دخل التجار الإنجليز ميدان المنافسة فى البحر المتوسط بعد غياب دام عشرين عاما، وباعوا أعدادا هائلة من قطع الملابس بأسعار رخيصة للغاية، وكانت ممارستهم للتجارة على سفن شراعية أسرع وأكثر أمنا من السفن الشراعية ذات المجاديف التى كان البنادقة يستخدمونها . وفى سنة ١٦١٢ كان فى القسطنطينية ٢٠ مؤسسة أعمال إنجليزية، بينما كانت المراكز التابعة للبندقية قد تضاءلت إلى خمسة فقط. ويشير الكتاب البنادقة إلى أن دخول التجار الإنجليز عالم البحر المتوسط التجارى راجع إلى أن «الحرب بين الإسبان والعثمانيين قد حفزتهم بمطالبها، إذ كان العثمانيون فى حاجة إلى الملابس والأطعمة والمعادن الضرورية لصب المدافع[٢٩]

أما عن دور مجاهدى البحر أو ما تسميه المراجع الأوروبية بالقرصنة، فقد كان مردوده على اقتصاديات المنطقة مباشرا . «فقد كان القراصنة يشكلون جماعات غير منظمة تشن حروبا بحرية واسعة النطاق. وهم جماعات من السهل جمعهم، ولا يكلفون كثيرا ومن الصعب تسريحهم إذ عندما يتم السلام فإنهم يبدأون فى الانقضاض على الطرف الأضعف[٣٠]، والواقع أن مسألة الانقضاض على الطرف الأضعف هذه إن كانت تنطبق على القراصنة المسيحيين الذين كانوا يهاجمون أحيانا سفنا مسيحية، إلا أنها لم تنطبق أبدا على مجاهدى البحر المسلمين لأسباب كثيرة سنذكرها فى مكان آخر من هذا البحث[٣١]. على أية حال، لقد كان اقتصاد البندقية حساسا للغاية إزاء مجاهدى البحر المسلمين، منذ سنة ١٥٠١ على الأقل. ولدينا دليل صارخ على ذلك إذ عندما وصلت أخبار مفادها «أن كمالى (Kemali) القرصان العثمانى الذائع الصيت بدأ يمارس أعماله فى بحر إيجة، أدى هذا إلى ارتفاع فورى فى تكاليف التأمين البحرى من مجرد ٢٪ إلى رقم مهول هو١٠٪ ٢٢[٣٢]

وإذا كان كولز يذكر أن «القرصنة قد شجعها فى المقام الأول، المواجهة بين العثمانيين والإسبان[٣٣]. إلا أن هناك عوامل أخرى لا يمكن بأى حال إغفالها فطوال القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن السابع عشر كان المسلمون يطردون من أسبانيا رغم معارضة أصحاب الأراضى الأسبان الذين فقدوا بخروجهم طاقات عاملة وإنتاجية هائلة[٣٤]. وإنما كان إخراجهم أساسا نتيجة جهود كنسيّة صليبية لا تضع نصب أعينها إلا البعد الصليبى، دون نظر للمصالح الأسبانية الحقيقية[٣٥] وكان المسلمون المطرودون يسلبون ممتلكاتهم وأموالهم دون تعويض إطلاقا، أو دون تعويض كاف، ففى أول أكتوبر سنة ١٦١٠ على سبيل المثال قرر مجلس المالية (Coumcil of Finance) الملحق بالعرش الإسبانى أن ممتلكات المسلمين الأسبان فى (Ocena) ومدريد قد بيعت غالبها بما يساوى ٧٥ مليون مارافيد[٣٦] وهو ما يساوى ٢٠٠,٠٠٠ دوكات[٣٧]. وذكرت تقارير السفراء الأوروبيين بأسبانيا فى هذه الفترة أن أموال المسلمين المصادرة كانت مجالا للسلب والنهب والتوزيع على المحاسيب وإنها لم تدخل الخزانة الأسبانية بالطرق القانونية المعتادة[٣٨].

وإذا علمنا أن عدد المسلمين المطرودين من إسبانيا طوال القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر قد قاربوا فى بعض التقديرات الملايين الثلاثة[٣٩] وقد خرج المسلمون عبر طرق عديدة تعرضوا فى جميعها للسلب والنهب والمعاملة القاسية، فقد خرج بعضهم متجها عبر البرانس إلى فرنسا فلاقوا على جانبى الحدود نصبا[٤٠] وسمحت السلطات الإسبانية للمسلمين القادمين من البرتغال بالمرور عبر أراضيها وصادرت ما يملكون من ذهب وفضة فلاقوا على جانبى الحدود البرتغالية والإسبانية نصبا وعنتا[٤١]، وخرج بعضهم عن طريق السواحل الجنوبية والشرقية ولم يسمح لهم بحمل ذهبهم وفضتهم معهم، ولا أن يحملوا من أغراضهم إلا ما تطيق ظهورهم حمله[٤٢]، فلاقوا فى أمرهم هذا

عنتا، وإذا كان خروج المسلمين من الأندلس كما قلنا عملا كنسيا خالصا، اتضح لنا الكراهية والحقد الشديدين الكامنين فى نفوس هؤلاء المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم عدوا بغير حق، وإذا علمنا أنهم قد سلبوا أموالهم بل وأبناءهم. إذا علمنا هذا لم نعد نستغرب انضمام أعداد هائلة من هؤلاء إلى حركة جهاد البحر، ليس قرصنة منهم وإنما عملا على استرداد ما اغتصب منهم، وكانوا فى جهادهم هذا يتعرضون لكل ما هو مسيحى دون تمييز بين إسبان وبرتغال وبنادقة، لا لشىء إلا لأن إخراجهم اتخذ طابعا صليبيا. وقد انضم لحركة جهاد البحر أيضا عدد من سكان شمال إفريقيا، لذا يمكن القول أن حركة جهاد البحر كانت حركة جهاد إسلامية عامة، وليست حركة تركية أو عثمانية فقط بأية حال من الأحوال، وقد أصابت هذه الحركة فى الصميم كل دول حوض البحر المتوسط الأوروبية، بما فيها البندقية فعلى حد قول السفير الفرنسى فى البندقية سنة ١٦٠٧: «إن هذا المكان موبوء كله بالقراصنة»[٤٣] فى سنة ١٦١٢ أضاف قنصل فرنسى آخر فى أحد تقاريره قائلا: «إن هؤلاء السادة[٤٤] مدانون بسبب غفلتهم وعدم اهتمامهم بتقديم الحماية الكافية أو ارسالهم بعض السفن بهدف العمل ضد القراصنة، فهذا أمر لا يعيرونه أدنى اهتمام كأنما فقدوا عقولهم»[٤٥].

ومع هذا، فكما سبق القول لا يمكننا إرجاع هذه الآثار جميعا لحركة جهاد البحر الإسلامية فقد تعرضت البندقية أيضا لأضرار بالغة من قراصنة مسيحيين، لكن شتان ما بين الطائفتين، فالطائفة الإسلامية كما اتضح كانت تسترد حقا مغتصبًا وثأرًا، أما القراصنة المسيحيون فقد كان المال وازعهم، وقد يكون هذا نوعا من العقاب توجهه القوى المسيحية الأخرى للبندقية لعدم وقوفها معها فى كثير من الحالات كما ينبغى. فقد جابهت البندقية أقسى امتحان لها من «قبل الجماعات المعروفة بالأسكوس (Uskos) وهم لاجئون من

الصـرب والبـوسنة وطنهم الهبـسـبـرج النمـسـيويـون فى كارينولا، ولم يكفـوا عن الهـجـوم والقـرصنـة عـبـر الأدرياتيكى وقـد أجـبـرت هجـمـاتهم فى آخـر الأمـر جمهورية البندقية على الدخول فى حرب باهظة التكاليف ضدهم، عرفت بحرب الأسكوس فى بحر الأدرياتيك فى الفترة من ١٦١٤ إلى ١٦١٧»(٤٦).

ورغم أن الأسكوس لم يكونوا مسلمين، إلا أن حماية الهبسبرج النمسويين لهم تجعلنا لا نفصل بين العداء الهبسبرجى العثمانى، وموقف البندقية غير الحاسم إلى جانب العالم المسيحى، وهذه الغارات من ناحية أخرى.

وقـد يتبـادر إلى الذهن أن انهـيـار أسطول البندقـيـة التـجـارى وفـقـدانهـا لمستقـراتها التجـارية سيؤثـر على الجانب الإسـلامى فى هـذا الصـراع الدامى، والواقع أن الأمـور لم تكن كذلك تماما فقـد كان هناك من اسـتغل هذه الظروف لصـالحـه، ونعنى بهم أهل راجـوسـا (Ragusa) كـمـا أن هذه الظـروف الملبـدة ومـوقف البنـدقـية الراغبـة فى الحـفـاظ على مـصـالحـهـا بأى ثمن قـد أدى إلى انتعاش تجـارة غريبـة من نوع خاص ونعنـى بها تجـارة المعلومـات أو الجـاسوسية، وقـد أثبتت الدراسـات المـعـتـمـدة على الوثائق التى راجـعـهـا مـؤخـرا عـدد من البـاحـثين الغـربيين أن البنادقـة وأهل راجـوسـا كـانوا يبـيـعـون المـعلومـات لكل الأطراف المتنازعة دون أى ولاء عقائدى. لقد كانوا يبيعون لمن يدفع أو يهدد.

لقد انتهز أهل راجوسا فرصة تناقص أسطول البندقية التجارى تحت ضغط هجمات رجال البحـر المسلمين وغيرهم وتحت ضغط المعارك الحـربية الطويلة الأمد، فسدوا هذا الفراغ، فبينما كانت تجارة البنادقة قد أصيبت بالشلل خلال حروب العـثمـانيين فى قـبـرص (١٥٧٠ ـ ١٥٧٣) فإن سـتـين سـفـينة كـبـيـرة لأهل راجوسا كانت تذرع البحـر المتوسط جيئة وذهابا فيما بين العاصمة العثمانية والأسكندرية وطرابلس وبيـروت وسـالونيكا. وفى أوائل الثـمـانينات من القـرن

السادس عشر كان هناك ٢٥٠ قائد سفينة مسجلين بالفعل، و ٥٠٠٠ بحار فى ميناء راجوسا، كما كان الميناء يضم ٢٠٠ قارب يمتلكها التجار الراجسيون فى حالة عمل دائب(٤٧).

لقد كانت راجوسا فى ظل هذه الظروف هى نقطة التماس ووسيلة الاتصال الضرورية بين أوروبا والامبراطورية العثمانية، فكانت هى نقطة البداية فى الأدرياتيك لطريق القوافل ورجال السلك الديبلوماسى فى تنقلهم من (Nis) وصوفيا وفيليبوبولس (Philippopolis) إلى العاصمة العثمانية، كما كان الجواسيس من أهل راجوسا والوكلاء السريون ذوى نشاط ملحوظ فى السياسة الأوروبية، فخلال الفترة من ١٥٣٠ إلى ١٥٣٩ بينما كان أحد تجار راجوسا وهو سيرافين جوشتك (Serafin Gucetik) يمهد للمفاوضات التى أدت إلى المعاهدة الفرنسية العثمانية سنة ١٥٣٦ كان هناك شخص آخر من أهل راجوسا أيضا هو مارين زامنجا (Marin Zamanaga) يكتب تقارير عن الشئون العثمانية لتقديمها للامبراطور شارل الخامس. فإذا كانت الظروف المحيطة قد أدت إلى انهيار الاقتصاد البندقى، فانها على العكس قد أدت إلى الرخاء والازدهار فى راجوسا نتيجة هذه الأنشطة التى حققت للتجار والمشتغلين بالاحتكارات الصناعية والجواسيس أرباحا طائلة، مما مكن أهل راجوسا من الاحتفاظ بفاعليتهم وقوتهم، إلا أن هذا الوضع قد أدى فى نفس الوقت فيما يقول أحد الباحثين إلى تجميد العلاقات الاجتماعية فى قالب محافظ، فبينما «كانت المدن الإيطالية يعتريها صراع طبقى، وكانت بواكير ذوبانها فى كيانات أكبر قد بدأت، ظلت راجوسا متحجرة ككيان له طابع أوروبا الوسيطة، حيث كان نشاطها التجارى والاقتصادى تديره عصبة منظمة تنظيما فائقا وتحظى بمزايا اجتماعية، ومنغلقة على نفسها»(٤٨)

وثمة تغير آخر فى اقتصاد البندقية وغيرها من الدول الإيطالية فرضه الوجود الإسلامى فى البحر المتوسط خلال الفترة موضوع الدراسة، هو تحول عدد كبير من أهل البلاد إلى لعبة القروض الربوية والعقود التجارية فى الفترات التى سدت أمامهم فيها فرص التجارة، فتحولت الأموال السائلة التى بين أيديهم إلى بضاعة يتاجرون بها أى سارت هى نفسها مادة التجارة دون وسيط من بضاعات الشرق أو غير الشرق، وليس معنى هذا أن المعاملات الربوية لم توجد إلا فى هذا الوقت، وإنما نتحدث عن زيادتها. ولاشك أن هذا كان عاملا من عوامل انهيار اقتصاد البندقية، على المدى الطويل، وإن حقق بعض النجاحات الموقوتة. يذكر كولز أن أصحاب البنوك الإيطاليين البارعين فى لعبة القروض الربوية والعقود التجارية قد أوقعوا فى شراكهم كل المؤسسات التجارية وكانوا هم المؤثرين الرئيسيين والمستفيدين الكبار، والضحايا . فى بعض الأحيان. التوسع الاستعمارى الإسبانى، فقد تعرضت الحضارة الإيطالية التى مازالت إيطاليا فى أواخر العصور الوسطى (إيطاليا النهضة) لمعاناة التخريب والدمار خلال بواكير القرن السادس عشر، عندما أصبحت إيطاليا مسرحا لصراع القوى الأوروبية ممثلة فى فرنسا وإسبانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومع هذا فقد ظلت دويلات أيطاليا تمثل أكثر مجتمعات أوروبا حيوية. إلا أن الدول الإيطالية قد عانت معاناة شديدة نتيجة التوسع العثمانى بالنسبة لمستعمراتها التجارية والأراضى التابعة لها فى البحر الأسود والبلقان وبحر إيجه والشرق الأدنى. ففى القرن السادس عشر أحكم العثمانيون قبضتهم على البلقان وفتحوا الشام ومصر وتحالفوا مع شمال أفريقيا مما عمق الحروب البحرية فى البحر المتوسط، ومما جعل إيطاليا عرضة بصورة متزايدة لهجمات المسلمين. وفى نفس الوقت، وبعد ذلك أيضا، كان جزء كبير من شبه الجزيرة الإيطالية ممثلا فى نابلى وصقلية وجنوه وميلان قد اندرجت ضمن الاستعمار الإسبانى وكلما

تصارعت الامبراطوريتان: العثمانية والهبسبرجية فى البحر المتوسط، كانت إيطاليا تواجه هذه الأعمال العسكرية من القوتين المتصارعتين(٤٩)، والواقع أن ضياع المراكز التجارية والمستعمرات البندقية، وسقوطها فى أيدى العثمانيين، كان فى الغالب الأعم بناء على طلب وإلحاح من أهالى هذه المستعمرات بشهادة الكتاب الغربيين وبناء على وثائق ظهرت ولم يراجعها عدد كاف من الباحثين. وتفسير هذا أن البنادقة لم يكونوا يهتمون بكثير أو قليل بأهالى مستعمراتهم.

لقد كانت المستعمرات بالنسبة لهم مجرد مراكز للتجارة، ولم يكن البنادقة على استعداد لصرف دوكية واحدة لإصلاح شئونها، رغم ثرائهم الفاحش، لذلك كان أهالى المستعمرات البندقية يحسون بكراهية وحقد شديدين نحو البنادقة، لهذا ليس عجبا أن وجدناهم يرحبون بالفتح العثمانى بل ويطلبونه. فإذا كان العثمانيون وحركة جهاد البحر الإسلامية قد أدت إلى انهيار البندقية اقتصاديا، فان الانهيار الاقتصادى لأهالى المستعمرات البندقية، هو أحد العوامل التى أدت لسقوطها.

فبالنسبة لكريت على سبيل المثال كان أهلها . فيما يقول جان موريس بناء على وثائق ظهرت أخيرا . هم الذين طلبوا من العثمانيين التدخل فى جزيرتهم للأحوال المتردية جدا للسكان اليونانيين فى ظل حكم البنادقة، فقبل الفتح العثمانى لكريت كتب أحد المسئولين البندقيين عن الأحوال فى كريت إن «أطفال الجزيرة عراة والنساء أنصاف عراة» وإن «الفلاحين كالعبيد نصف جوعى» والنساء يرتدين الأثمال أو الخرق البالية: لقد بدأ النظام الإقطاعى ينهار، لذا راسل كثيرون من الكريتيين للسلطان العثمانى طالبين منه ومتوسلين إليه أن يتدخل ويخلصهم من حكم البنادقة(٥٠).

وإذا كان العامل الاقتصادى هو الأساسى بالنسبة لشكوى أهل كريت وطلبهم التدخل العثمانى، إلا أنه ليس العامل الوحيد، فعندما قدم البنادقة للجزيرة أول مرة استولوا على الكنائس وحاولوا قبر اللغة اليونانية وعدم استخدامها فى الطقوس الدينية، وطردوا الأحبار والرهبان وجعلوا رجال الدين الأورثوذكس تابعين لكنيستهم اللاتينية، وقصروا ممارسة الشعائر الأورثوذكسية على ثلاث كنائس فقط(٥١)

والواقع أن سقوط كريت كان قاصمة الظهر بالنسبة للبندقية، ففى بداية القرن السابع عشر تمخضت امبراطورية البندقة عن كريت وجزر قليلة فى الأرخبيل مثل تينوس (Tinos) و (Cenigo) لهذا كان سفير البندقية لدى الباب العالى لا يكف عن التملق تحاشياً للخطر المرتقب من اسطنبول، وتوسلا إلى العثمانيين لكف مجاهدى البحر المغاربة. ومع هذا فقد قدم البنادقة للعثمانيين المبرر الكافى لفتح كريت. ففى سنة ١٦٤٤ استولى فرسان مالطة على أسطول عثمانى تجارى قدرت حمولته بثلاثة ملايين من الذهب وكان به عدد من نساء السراى، واتجهت السفن إلى كريت، فطالب السلطان البنادقة بالترضية ودفع تعويض، وتوجه أسطول عثمانى إلى كريت أمام خانية سنة ١٦٤٥ ويؤكد شارل ديل أن الموقف الداخلى فى كريت لم يكن يساعد على المقاومة فالنبلاء البنادقة ينعمون بالامتيازات، أما سائر الناس، فلم يكونوا يشعرون بأى بغضاء تجاه الترك، ورغم استعدادات البنادقة وإرسالهم الأساطيل إلا أن خانية سرعان ما سقطت سنة ١٦٤٥، ولم يتحرك حلفاء البندقية فى إيطاليا، وضيق المسلمون الخناق على كانديه عاصمة الجزيرة؛ ولكنهم لم يسقطوها.

لقد كان الاحتفاظ بكريت مسألة حياة أو موت بالنسبة لهذه الجمهورية التعسة، لهذا ولمواجهة الفتح العثمانى اضطر مجلس الشيوخ(٥٢) فى دولة

البندقية إلى بيع المناصب العامة، كما أن الطبقة الارستقراطية[٥٣]، وهى طبقة مقفلة لا يسمح بالدخول فيها لأحد من غير ابنائها قد سمح بدخولها لكل، من يقدم للوطن الف جندى، أو يهب خزانة الدولة ٦٠,٠٠٠ بندقى (عملة ذهبية) ومنحت أهل الولايات الخاصة للبندقية ألقاب النبل مقابل زيادة الضرائب المفروضة عليهم بحيث وصلت إلى ٢٠,٠٠٠ بندقى، ووافقت أغلبية المجلس الكبير(٥٤) على هذا الاقتراح رغم اعتراض بعض الأشراف، فتم تسجيل ٨٠ أسرة من الطبقة المتوسطة فى السجل الذهبى(٥٥) وبذلك جمعت الدولة سبعة ملايين بندقى(٥٦).

وهكذا لم يعدم البنادقة حيلة، لقد تاجروا فى البهار ومنتجات الشرق فى بداية الأمر فلما غم عليهم تاجروا فى الأموال المكنوزة لديهم فأقرضوها بالربا، فلما نضب مالهم تاجروا في ألقاب الشرافة والنبالة، وما يهمنا فى هذا الصدد أن الأزمة المالية الناتجة عن فتح العثمانيين لكريت قد أحدثت تغييرا جذريا فى النظام الدستورى للبندقية، فقد بدأت الطبقة الأرستقراطية تتحل بمعناها الضيق، وفتح الباب على مصراعيه لكل قادر على الدفع للانضمام إليها، بل إن بعض الأغنياء من غير البنادقة قد حصلوا على ألقاب النبالة والشرافة، وتم تسجيلهم فى السجل الذهبى، ذلك السجل الذى أحرقه نابليون بعد أقل من قرن، وبذلك لم يستمتع الارستقراطيون الجدد طويلا بجعل ابنائهم وأحفادهم يحملون الألقاب التى دفعوا من أجلها غاليا. على أية حال، فبعد التغيير الجذرى الذى حاق بتكوين الطبقة الارستقراطية، شرعت البندقية فى إثارة الألبان وأهل الجبل الأسود على العثمانيين كما بدأوا جهودا واستعدادات حربية مكثفة، وامتد الصراع من كريت إلى الشرق كله، وأعلن الصدر الأعظم أحمد كوبريللى أن العثمانيين مصرّون على الاستيلاء على كنديه حتى ولو حاربوا مائة عام، وقد حقق البنادقة انتصارات غير حاسمة فى معارك مختلفة فى سنوات ١٦٤٦ و

١٦٥١ و ١٦٥٦ و ١٦٥٧ و ١٦٦١ ومع هذا رفض الترك التخلى عن كريت، وتحالف البنادقة مع البابوية ومع القوزاق ومع المجر وأتى متطوعون فرنسيون لمساعدتهم ومع هذا سقطت كنديه فى يد العثمانيين فى ٥ ديسمبر ١٦٦٩ ولم تجد هذه التحالفات فتيلا، واضطر القائد البندقى فرنسوا مورسينى للتسليم وتم توقيع معاهدة نهائية للصلح سنة ١٦٧١ بعد أن فقدت البندقية آخر جزء غال من امبراطوريتها وخرجت منهوكة تماما بعد أن تكلفت ما لايقل عن ١٢٦,٠٠٠,٠٠٠ بندقى[٥٧]

وإذا كان أهل كريت قد رحبوا بالفتح العثمانى فيما تقول المصادر الأوروبية فإن القصة نفسها قد تكررت قبل هذا فى سائر مستعمرات البندقية، فقد رحب أهالى المورة ترحيبا شديدا بالفتح العثمانى واعتبروا العثمانيين مخلصين، وإذا كان جان موريس يرجع هذا لأسباب دينية، إذ كان اليونانيون الأورثوذكس - فيما يقول موريس - قد سئموا سيطرة البنادقة الكاثوليك التى استمرت عدة قرون، فرحبوا بالفتح العثمانى[٥٨]، إلا أن الذى لاشك فيه أن العامل الاقتصادى كان له دور غير قليل فى ترحيب السكان بالعثمانيين كما حدث بعد ذلك فى حالة كريت.

على أية حال، لقد أعطى البنادقة المبرر للعثمانيين لإتمام فتح المورة، ففى سنة ١٤٩٢ ارتاب بايزيد فى بعض رسائل سفير البندقية، وقد سبق أن أشرت إلى أن المعلومات قد أضحت تجارة رائجة فى هذه الفترة وأن البنادقة والراجوسيين قد عملوا فى هذا الميدان بمهارة. على أية حال، فانه نتيجة شك السلطان فى رسائل السفير شنت القوات العثمانية هجوما على ممتلكات البنادقة فسقطت ليبانتو ثم تخلت البندقية عن مواقعها فى المورة ووقعت سنة ١٥٤٠ اتفاقية بذلك ودفعت للسلطان تعويضا مقداره ٣٠٠,٠٠٠ بندقى[٥٩].

وفى أعقاب سقوط قبرص فى أيدى العثمانيين سنة ١٥٧٠ رغم عدم سقوط قلعتها فى فماجوسة إلتى سقطت بعد ذلك بعام، تحالفت البندقية مع أوروبا، فكان من نتيجة هذا التحالف هزيمة العثمانيين فى معركة ليبانتو الشهيرة، ورغم أن بعض الكتاب الغربيين جعلوا من هذه المعركة حدا تاريخيا فاصلا، إلا أن العثمانيين لم يعتبروها كذلك، فالسلطان العثمانى قال ساخرا «إن الكفرة لم يزيدوا على أنهم نتفوا شعرة من لحيتى، وأنها ستنمو من جديد»[٦٠]. ويذكر شارل ديل أن هناك نتائج إيجابية لصالح العثمانيين بعد معركة ليبانتو، ومن ذلك أن البنادقة اعترفوا بتبعية قبرص للعثمانيين ودفعوا تعويضا حربيا قدره ٣٠٠,٠٠٠ بندقى، ودفعت الجزية نتيجة امتلاكها زانطة، حتى لقد قال أحد المعاصرين «إنه يبدو أن الترك قد كسبوا ليبانتو» وقال آخر «لقد خسر البنادقة فى حربهم ضد العثمانيين أكثر من ١٢,٠٠٠,٠٠٠ بندقى فلم يعد لهم إلا التعلق بذيل رداء مولاهم السلطان وظل الإسلام قائمًا بين العثمانيين والبنادقة حتى القرن السابع عشر[٦١] ويصل الأمر بجان موريس إلى أن يقول: إنه إذا كانت البندقية فى حاجة إلى الإسلام، فان الإسلام ليس فى حاجة لها[٦٢].

ويقصد موريس بهذه العبارة أن البنادقة كانوا بحاجة إلى العثمانيين أكثر من حاجة العثمانيين إليهم، وهذا يفسر الخدمات التى كان يؤديها البنادقة للعثمانيين فى كثير من الحالات، فرغم أن البندقية تعتبر «أقدم الكيانات السياسية الأوروبية فى مواجهة الإسلام فى التاريخ الحديث إلا أن البندقية فى نفس الوقت كانت تعتمد على تجارة المسلمين، فعلاقاتها بعالم الإسلام كانت دائما غامضة غير محددة»[٦٣]، ولعل هذه العلاقات المعقدة بين العثمانيين والبنادقة تفسر لنا محاولات البندقية ممارسة نوع من الحياد بين العثمانيين والقوى الأوروبية المختلفة أو «اللعب على الحبلين»، إن صح هذا التعبير، والويل لها من الطرفين فى حالات كثيرة عند اكتشاف عدم ولائها، أما على الجانب

الآخر فقد كانت علاقة البندقية بالبابوية سيئة فى معظم الأوقات، بل لقد تعرضت البندقية بسبب موقفها الممالئ للمسلمين لحرمان البابا، بل لقد وصفهم البابوات بأنهم هراطقة مبتدعين(٦٤) بسبب هذه العلاقة بالعثمانيين خاصة عندما كان البنادقة يعمدون إلى تخليص الأسرى المسلمين من أيدى قراصنة البحر المسيحيين العاملين فى المتوسط(٦٥)

وأخيرا فقد كان الضغط الإسلامى على البندقية وضياع مستعمراتها هو السبب الأول فى توجه البندقية نحو البر الإيطالى تتوسع فيه تعويضا لها عن خسائرها(٦٦) فى البحر المتوسط وبحر إيجه، مما نتج عن هذا التوجه من آثار خطيرة ليس فى داخل إيطاليا فحسب، وإنما فى أوروبا كلها، فلقد بدأ هذا التوجه فى القرن الخامس عشر، بغزوها فلورنسا(٦٧)، ثم استمر بعد ذلك. وكان هدف البندقية فى توسعها داخل البر الإيطالى هو السيطرة على ممرات الألب التجارية حيث تمر تجارة البندقية إلى المانيا والنمسا والمجر وكان هذا مطلبا تجاريا عاجلا للبندقية(٦٨). فقد كان وصول العثمانيين لساحل دلماشيا منذ القرن الخامس عشر وتمركزهم فيه يعد حدثا خطيرا لم يهدد البندقية فحسب، وإنما أوروبا جميعا، فيما يذكر باحث غربى(٦٩) . لم يعد غريبا إذن ما ذكره لورد أكتون من أن التاريخ الأوروبى الحديث يبدأ تحت مطارق المسلمين(٧٠).

وإذا كانت الصفحات السابقة قد بينت إلى أى مدى حاق الانهيار باقتصاد البندقية فإننا سنتناول فى الصفحات التالية بعض الملامح الاقتصادية فى تاريخ جنوة، من خلال تأثيرات نفس العناصر، ونعنى بها حركة جهاد البحر التى ثبت من خلال الصفحات السابقة إنها كانت حركة جهاد إسلامية عامة، ومن خلال سقوط المراكز التجارية الجنوية فى الشرق ومن خلال تورط إسبانيا وإفلاسها، مبتعدين قدر الإمكان عن التفصيلات التاريخية المعروفة، فقد شغل تاريخ

إيطاليا فى هذه الفترة آلاف الكتب والدراسات بسائر اللغات الأوروبية، خاصة فى الثلاثة قرون الأولى من هذا التاريخ الحديث، كما أن المكتبة العربية قد شاركت على نحو ما بهذا الاهتمام.

لقد أثر موقع جنوة فى توجهها بحريا، كما سبق أن رأينا مثل هذا التوجه فى البندقية فقد تأثرت جنوة بما يحدث خارج البر الإيطالى أكبر من تأثرها بما يحدث داخله[٧١] ومع هذا فقد كانت جنوة أكثر تأثرا بالكيانات السياسية فى إيطاليا من البندقية، فلم تنفك جنوة من سيطرة ميلانو إلا فى ١٤٣٥/١٤٣٦، ولم يكن أهل جنوة راضين بطبيعة الحال عن خضوعهم لدولة الفسكونتى، لهذا كانت ثورتهم على السلطة الميلانية، وقد أدركت جنوة أن على الدول الإيطالية الجمهورية أن تتحالف معا للدفاع عن نظمها فى هذه الفترة من القرن الخامس عشر[٧٢].

لكن هذا التحالف بين جنوة والبندقية خاصة كان تحالفا شكليا إذ كانت العداوة ضامرة بين ثناياه تطل برأسها بين حين والحين. وليس أدل على هذا مما أورده شارل ديل من اقتباسات معبرة، إذ يذكر أنه حين مات فرانسوا سفورزا دوق ميلانو سنة ١٤٦٦، ظنت البندقية أن الظروف أصبحت مواتية للعودة إلى أطماعها القديمة فى لمبارديا، وبدت فلورنسا تحت حكم دى ميدتشى عاجزة عن مناهضة مشروعات البندقية التوسعية خاصة وأن البنادقة كانوا قد شرعوا فى تقديم العون سرا للاجئين المبعدين من أعداء أسرة آل ميدتشى، وفى نفس الوقت كان البنادقة يجرون اتصالات مع بلاط جنوة وغيره لتأليب الأعداء على دوق ميلانو، ومع هذا لم ينجح البنادقة وتم تكوين حلف من البابا وفلورنسه ونابلى للمحافظة على السلام فى شبه الجزيرة الإيطالية. وقد أوضح الدوق جالياس مارى (Galeas Marie) لمبعوثى البندقية مدى الشك الذى أثارته

سياستهم، فقال: «إنكم لو أدركتم ما يكنه لكم الجميع من سوء نية لوقفت شعوركم، ولتركتم كل واحد يعيش آمنا فى سره» «هل تعتقدون حقا أن دول إيطاليا المتحالفة أصدقاء جدا، ومخلصين بعضهم للبعض الآخر.. كلا.. إن الحاجة وحدها هى التى ألجأتهم إلى هذا التحالف، وقد اضطره إليه الخوف منكم، وسيبذل كل منهم أقصى ما يستطيع لتقليم أظفاركم، وأنى لأقسم لكم أن البابا - وإن يكن من أبناء جلدتكم - سيكون أشد من غيره عزما فى هذا السبيل، أما ملك نابلى فلا يفكر إلا فيما يجلب الأذى لكم، ولو أن قوته كانت تعادل سوء نيته لأفناكم من على وجه الأرض، وإنكم لتعلمون قيمة صداقة الفلورنسيين والجنويين لكم، وكل الولايات الإيطالية الأخرى ترى رأيهم، والمال الذى تنفقون لم يجلب لكم سوى الصيت السيئ لأنه ما من أحد إلا ويقول: أنكم تريدون التهام العالم بأسره»(٧٣). وكانت جنوة أكثر عرضة لتهديد القوى الأوروبية الأخرى، من البندقية، خاصة من قبل فرنسا وإسبانيا(٧٤).

ومهما يكن من أمر، فالذى يهمنا فى هذا البحث هو أثر القوى الإسلامية، لقد فقدت جنوة مستعمراتها ومراكزها التجارية فى الشرق بسبب القوى الإسلامية، كما فقدت مركزها وعلاقاتها التجارية المميزة مع الساحل الأفريقى إلى الغرب من طرابلس(٧٥) رغم أن العلاقات الجنوية بهذا الساحل كانت عريقة ومفيدة ومحققة لأرباح طائلة. إلا أن رد فعل الجنويين إزاء فقد مستعمراتهم التجارية كان مختلفا عن رد فعل البنادقة، كما سيتضح. فبينما كان التوسع العثمانى قد أدى إلى خراب البندقية بشكل مباشر وغير مباشر، نجد أن هذا التوسع العثمانى قد أدى بشكل غير مباشر إلى ازدهار جنوة، لكن هذه الحقيقة لم تكن ظاهرة للعيان فى البداية، فالمراكز التجارية الجنوية فى المشرق كانت أسرع استسلاما للغزاة العثمانيين من المراكز التابعة للبندقية، فقد فقدت جنوة فوكيا (Phoceae) مركز إنتاج حجر الشبة فى آسيا الصغرى سنة ١٤٥٢، ولقد

كان التجار الجنويون مرتبطين للغاية بالمنطقة التجارية فى البحر الأسود، وبمجرد سقوط القسطنطينية ذهبت تجارة الجنويين فى آسيا الصغرى وبحر إيجة مع الريح، وفى سنة ١٤٧٥ سقطت كافا (Caffa)(٧٦) فى يد العثمانيين(٧٧).

وفى بحر إيجة فقدت جنوة امبروز (Imbros) ولمنوز (Lemnos) وساموثراس (Samothrace) سنة ١٤٥٦، واستسلمت ليبسوس (Lebsos) سنة ١٤٦٢، وكان المركز الأمامى الوحيد المتبقى هو جزيرة شيوز (Chios) الغنية التى ظلت فى حوزة جنوة حتى سنة ١٥٦٦ عندما حاصرها العثمانيون ونهبوها إثر احباطهم وهزيمتهم فى مالطة فى العام السابق ١٥٥٥، ولم يكن للجنويين القدرة على الانسحاب على أفضل وجه على النهج الذى كان البنادقة يحسنونه «فالجمهورية الليجورية (جنوة) المعروفة بالتنافس الفردى المسعور فى المجالين التجارى والسياسى كانت تبعا لذلك تفتقد رصيد الغيرة الوطنية كزميلتها البندقية»(٧٨).

وقد تعرض بعض الباحثين لتفسير السرعة التى تخلى بها الجنويون عن مراكزهم فى الشرق، فأرجع هذا للظروف الداخلية فى جنوة، وهو ليس التفسير الوحيد، كما سنذكر فيما بعد. يذكر كولز أنه «منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر كانت جنوة منصرفة تماما إلى النزاع المرير الناشب بين قدامى النبلاء والطبقة الوسطى (Popolo grasso) وقد أحرزت الطبقة الأخيرة سيطرة على الحكومة سنة ١٣٣٩، وبفضل الأسرات الغنية القوية كأسرة صولى (Sauli) وجستنيانى (Guistiniani) سيطروا على تجارة جنوة القادمة من الشرق. وخلال القرن الخامس عشر تناقصت هذه التجارة تحت ضغط التوسع العثمانى، كما جمع الارستقراطيون خيوط الأمور الداخلية فى أيديهم، وذلك ناتج

عن «قيام مصرف (بنك) القديس جورج للتسليف الحكومى فى سنة ١٤٠٧ والذى هيمن عليه جماعة من الارستقراطيين. وقد أغرقت الالتزامات المتزايدة والخسائر المتوالية فى البحر الأسود والشرق الأوسط حكومة الطبقة الوسطى فى مصاعب مالية جمة، لم يكن من السهل مجابهتها إلا فى مقابل التخلى عن المراكز التابعة للدولة فى الخارج، ونقل ملكية الأراضى وتحويل الضرائب الزراعية إلى البنك مقابل القروض»[٧٩] «وفى بواكير القرن السادس عشر، وجدنا المراقب الفلورنسى الداهية نيكولومكيافللى (Machiavelli) وقد لاحظ معنى تطور الأمور واقترح على النبلاء، أنهم باحتكارهم قدرا كبيرا من السلطات الإدارية فى فترة تكون فيها الحكومة قد غرقت فى المشاكل الحزبية أو الحربية أو منيت بعدوان خارجى، فإنه من المحتمل ساعتها أن يقفزوا للحكم ويسيطروا على الدولة[٨٠]. وهذا ما حدث بالفعل، إذ يذكر كولز بانه «باختصار، قامت الارستقراطية الليجورية من خلال سيطرتها على الميزانية العامة بالتسلل للحكم والنفوذ السياسى مرة أخرى. وعلى هذا فإن الخلافات الداخلية كانت السبب الأول لفشل جنوة فى مقاومة الغزو العثمانى لمراكزها التجارية الخارجية، مقاومة فيها تنظيم وعزم وتصميم»[٨١].

والواقع أن العكس قائم أيضا، فقد أدى الانهيار الاقتصادى الذى سببه الفتح العثمانى، إلى تغييرات فى نظم الحكم فى جنوة، كما حدث فى البندقية تماما، وكما سبق أن بينا عند الحديث عن البندقية، ففشل الطبقة الوسطى الجنوية فى التصدى للغزو العثمانى هو الذى أدى إلى تمام انهيارها مما سهل مهمة الارستقراطية الجنوية فى التسلل للحكم مرة أخرى، وذلك بظهورهم بمظهر المنقذ لأهل جنوة من الإفلاس والضياع بإقراضهم للحكومة وإنشائهم للبنوك واتباعهم نصائح مكيافللى الممثلة فى شغل عدد كبير من المناصب الإدارية، مما مكن لهم من الاستيلاء السلمى على السلطة بهدوء وبالتدريج.

والواقع أن هناك سببا أكثر أهمية فى سرعة تخلى جنوة عن مراكزها التجارية فى الشرق وعدم إبداء مقاومة نسبية كالتى أبداها البنادقة، وعدم اللجوء إلى الاتفاقات والمناورات والدبلوماسية مع الدولة العثمانية، كما فعلت البندقية أيضا، ويكمن هذا السبب فى أن جنوة قد أتيح لها من الفرص المدهشة والإستثنائية التى انبثقت فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ممثلة فى تمكن جنوة من تعويض ما خسرته من مراكز تجارية فى الشرق، بإيجاد مراكز ومجالات تجارية جديدة فى غرب البحر المتوسط، فقد كان انهيار الامبراطورية التجارية الاستعمارية الجنوية فى البحر الأسود والشرق الأدنى سببا فى تكيف اقتصاد جنوة تكيفا كبيرا (إعادة توجيه) بتأسيس امبراطورية تجارية ومالية فى ممالك أيبيريا الصاعدة(٨٢).

وفى ذروة هذا التطور خلال القرن السادس عشر اختلف تركيب امبراطورية جنوة عما كان عليه قبل وقوع ملحقاتها ومراكزها التجارية الشرقية فى أيدى العثمانيين، ويكمن هذا الاختلاف فى أمور ثلاثة:

١- لقد أصبحت إمبراطورية مالية واقتصادية فى الأساس، لا تعتمد على ضم المناطق.

٢- كما أصبحت ترتكز أساسا على الأمور المالية (كالإقراض والتحويلات وعمليات الصرافة) أكثر من ارتكازها على التجارة التقليدية (Routine com-merce) رغم وجود استثناءات من هذه القاعدة بطبيعة الحال.

٣- وثالث هذه الأمور أن الإمبراطورية المالية والاقتصادية قامت على أكتاف الارستقراطية الليجورية التى أزاحت الطبقة الوسطى وحلت محلها منذ سنة ١٥٢٨(٨٣).

والواقع أن وضع التجارة فى المتوسط لم يكن يؤثر على جنوة والبندقية فحسب، وإنما كان يترك تأثيرات، على القارة الأوروبية كلها(٨٤). ومما زاد من

رغبة الجنويين فى تغيير خططهم الاقتصادية اندراج سكان شمال أفريقيا فى حركة جهاد البحر، ومن المعروف أن الساحل الأفريقى الشمالى إلى الغرب من طرابلس كان مجالا خصبا للتجارة الجنوية منذ تاريخ بعيد؛ وكان البنادقة قلّما يرتادونه[٨٥]. وكانت مواد تجارة الجنويين مع سكان الشمال الأفريقى تتمثل خاصة فى الصوف والملابس[٨٦]. ولما حاول الجنويون تعويض التجارة فى هذا المجال مع إسبانيا، وجدوا أن إنتاج الصوف فى إسبانيا قد أصيب بضربة قاصمة[٨٧]. ويعلل بعض الباحثين تدهور تربية الأغنام فى هذه الفترة فى أسبانيا بخروج وإخراج المسلمين الإسبان الذين كانوا طاقة منتجة هائلة[٨٨].

على أن الجنويين قد طرقوا أبواب البرتغال أولا، ثم ما لبثوا أن امتدوا بنشاطهم إلى إسبانيا. فقد اتخذت بيوت المال الجنوية سبيلها للبرتغال ممثلة فى بيوت دوريا[٨٩] وسنتورين (Centorione) وكاتينيو (Caltaneo) وسالفاجو (Salvage) وسبينولا (Spinola) وغيرها، ثم مالبثوا أن انتشروا فى إسبانيا، فأسهموا فى خرابها منتهزين فرصة انشغالها فى حروب صليبية لا معنى لها، ولا ننسى أننا فى حالة الجنويين، أمام جماعات مالية وتجارية من الطراز الأول، خبرت لعبة المال والتجارة منذ أمد طال، وتوارثوا الخبرات فى مضمارها أبا عن جد، ثم إنهم راحوا يتعاملون مع شعوب جلها زراعى، قد انشغلت عن مصالحها الحقيقية بسعار دينى وتعصب مرير، أزكته الكنيسة، كما أن الكيانات الأوروبية الأخرى راحت تشبع غرور الإسبان بوصفهم إياهم بأنهم زعماء العالم المسيحى، وتقوى فيهم نعرة الزعامة الكاذبة، ليتحملوا دونهم عبء المواجهة الإسلامية. حتى البروتستنط، لا نستثيهم من (الضحك على الإسبان) رغم كراهيتهم الشديدة لهم، فنحن نجد توماس فولر فى كتابه الذى طبعه فى القرن السابع عشر (١٦٣٩) جاعلا عنوانه (تاريخ الحرب المقدسة) يقول: «نعم.. إن كل العالم المسيحى الغربى نيام، مطمئنين بسبب يقظته الدائمة (يقصد الملك الإسبانى)

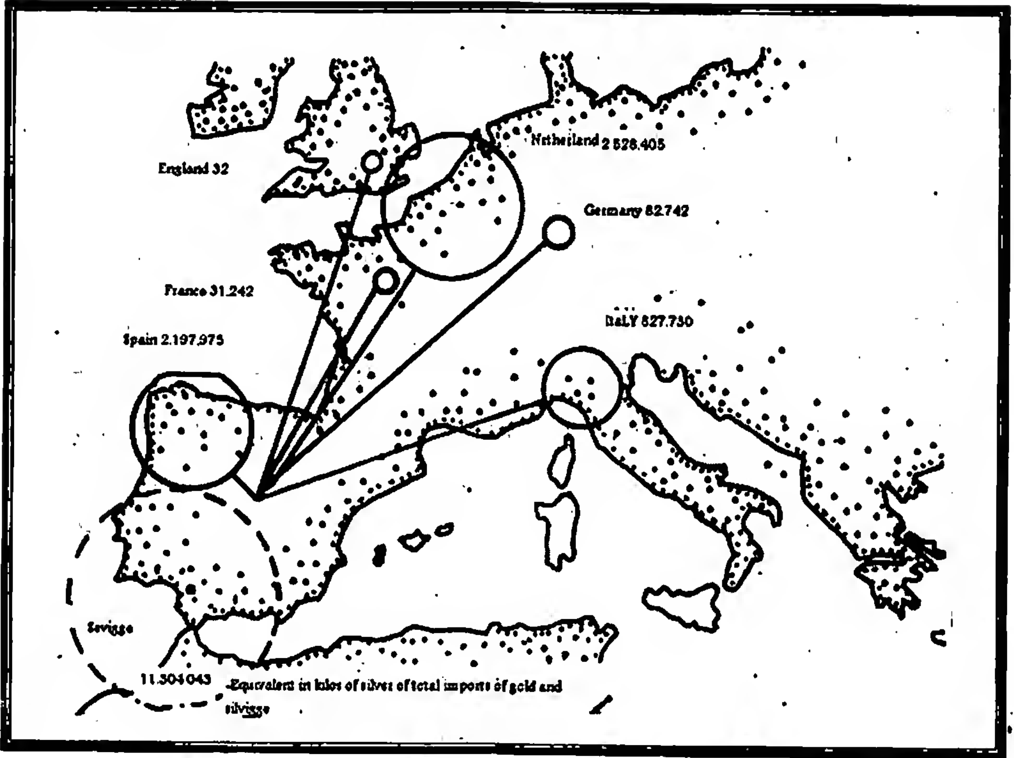
الذى بسفنه الكبيرة كمم أفواه تونس والجزائر.. نعم إن الله بمشيئته أمره أن يفعل هذا.. فسيادة الأمراء الكاثوليك فى الجنوب الشرقى وفى الجنوب، قد حفظت وصانت ودافعت عن المناطق البروتستنطية». وثمة سياسى آخر عاش فى عصر اليزابيث وكان رجلا داهية شديد المراس ونعنى به السير ورنسيس والسنجهام (F. Walsinghamp) قد أجرى حساباته وخرج منها برأى أكثر وضوحا، فقد كان يرى الصراع بين العثمانيين والكاثوليك فى البحر المتوسط «ما هو إلا صراع بين طرفى شيطان واحد وهو يأمل أن يذهب كلاهما . الكاثوليك والمسلمون . فى داهية»[٩٠] أى يفنى بعضهم بعضا.

تلك هى إسبانيا عديمة الخبرة فى مختلف المجالات التى هبط عليها الجنويون كالمصيبة العجلاء، فاستنزفوها ولم يتركوها إلا عظاما. وشاءت الظروف أن يكون هذا فى ظرف فقدوا فيه مستعمراتهم الشرقية وعلاقاتهم مع الشمال الأفريقى، فكان نهمهم أشد، لتعويض ما فاتهم. يقول كولز «لقد أظهر البحث فى دور الوثائق فى إشبيلية كيف أن أهل جنوة كانوا هم الوسطاء الرئيسيون فى التجارة بين إسبانيا والعالم الجديد خلال الفترة من ١٥٠٢ إلى ١٥٢٠ باعتبارهم حملة الأسهم غير المعلنين (السريين) فى بيوت التجارة الإسبانية، كما كانوا هم أصحاب وكالات التأمين البحرى والمشتغلون بالتسليف وكانت ملحقات التاج الإسبانى فى البحر المتوسط كسردينيا والصقليتين قد أصبحت قرص عسل سائغ فى أفواه الجنويين بفضل انتشار مستوطناتهم التجارية هناك فى أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر»[٩١] ولقد أحس الإسبان بهذه الاحتكارات الجنوية وكانوا منها فى كمد شديد، وهذا يفسر الحساسية بين أهل إيطاليا عامة، وأهل جنوة خاصة ، من ناحية والأسبان من ناحية أخرى، تلك الحساسية التى عبرت عنها الآداب الشعبية، والتى مازالت موجودة حتى الآن، ولقد اشتكى أعضاء برلمان قشتالة منذ سنة ١٥٢٨ من أن

تجارة الصوف والحرير والصلب والصابون قد أصبحت حكرا على أهل جنوة. وزاد التغلغل الاقتصادى لأهل جنوة فى أسبانيا عندما انفصل الأدميرال (أمير البحر) الجنوى أندريا دوريا عن خدمة فرنسا، وانضم إلى خدمة التاج الإسبانى بينما كان يحكم فى نفس الوقت قبضته على موطنه جمهورية جنوة، وقد كان مركز الارستقراطية الجنوية قد تدعم نتيجة استثماراتهم في إسبانيا، وقد كانت الارستقراطية الجنوية هى المستفيد الأول من تدفق المعادن النفيسة، خاصة الذهب على إسبانيا، ففى سنة ١٥٥٨ تقدمت شركة جرمادى (Grimadi) الجنوية بمليون سكودى ذهبى (Gold Scudi) كقرض واحد للتاج الإسبانى، وقروض كهذه كانت تصحب بنسبة فائدة عالية تتراوح ما بين ١٠٪ و ١٤٪ وكانت تحسب كقروض طويلة الأجل، وكان الدائنون يحصلون على أقاليم ومناطق بأكملها ويحصلون على حجج ملكية (Titles) واحتكارات تجارية وصناعية.. إذا تخلف التاج على السداد.

وفى مواجهة تلك القروض والصفقات كرر البرلمان الإسبانى فى سنة ١٥٤٢ وسنة ١٥٩٢ اعتراضاته احتجاجا على تطفل الجنويين على الاقتصاد الإسبانى، ووفقا لحساب جرى سنة ١٥٩٥ دفعت إسبانيا ما يساوى ٢٤ مليون دوكية مباشرة إلى الجنويين لإعادة دفع الديون، وهذا المبلغ يساوى قيمة المعادن النفيسة الإسبانية خلال السنوات الست والأربعين السابقة على سنة ١٥٩٥(٩٢).

لقد عرف الجنويون كيف ينتهزون الفرصة فى الفترات التى كان ينخفض فيها سعر الذهب فيما يقول الباحث فرانك سبونر (F. Spooner)(٩٣)، لقد مد أهالى جنوة أذرعهم فى كل اتجاه، فكانوا كأخطبوط رهيب فى ميدان تجارة الذهب والمعادن النفيسة الإسبانية الأمريكية، لقد كانوا يشترون الذهب مقابل الفضة من جنوة وسائر أنحاء إيطاليا ثم يبيعونه فى أوروبا محققين أرباحا طائلة(٩٤).



تبـين هذه الخـريطة التى أوردها برودل (Braudel)، كيف أضاعت إسـبانيـا ثروتها من المعادن النفيسة لتحقيق أهداف سياسية وأطماع غير ذات جدوى، كما أثبتت النتـائج بعد ذلك. ومن خـلال هذا الشكل التـوضيـحى يتـبين أن أكبر كمية من الكيلوات الفضية قد تم إنفاقها فى معالجة ثورات وحروب ومشاكل الأراضى المنخفضة، يلى ذلك ما تم إنفاقه على مشاكل إيطاليا وحروبها. ويقول برودل أن فرنسا لم تبع نفسها لإسبانيا لهذا كان ما أنفقه الأسبان فيها قليلا. وليست هذه المبالغ هى كل ما أنفقته الحكومة الإسبانية من أجل أوروبا.

ويذكر برودل أنه نقل هذا الدياجرام أو الخريطة عن: (F. C Spooner) الذى حدد المعالم الإحصائية للخريطة بناء على الجداول والإحصائية والحسابات التى أجراها(Alvaro Castillo Pintado)

انظر: Braudel, F.: op. cit. vol I.P.974

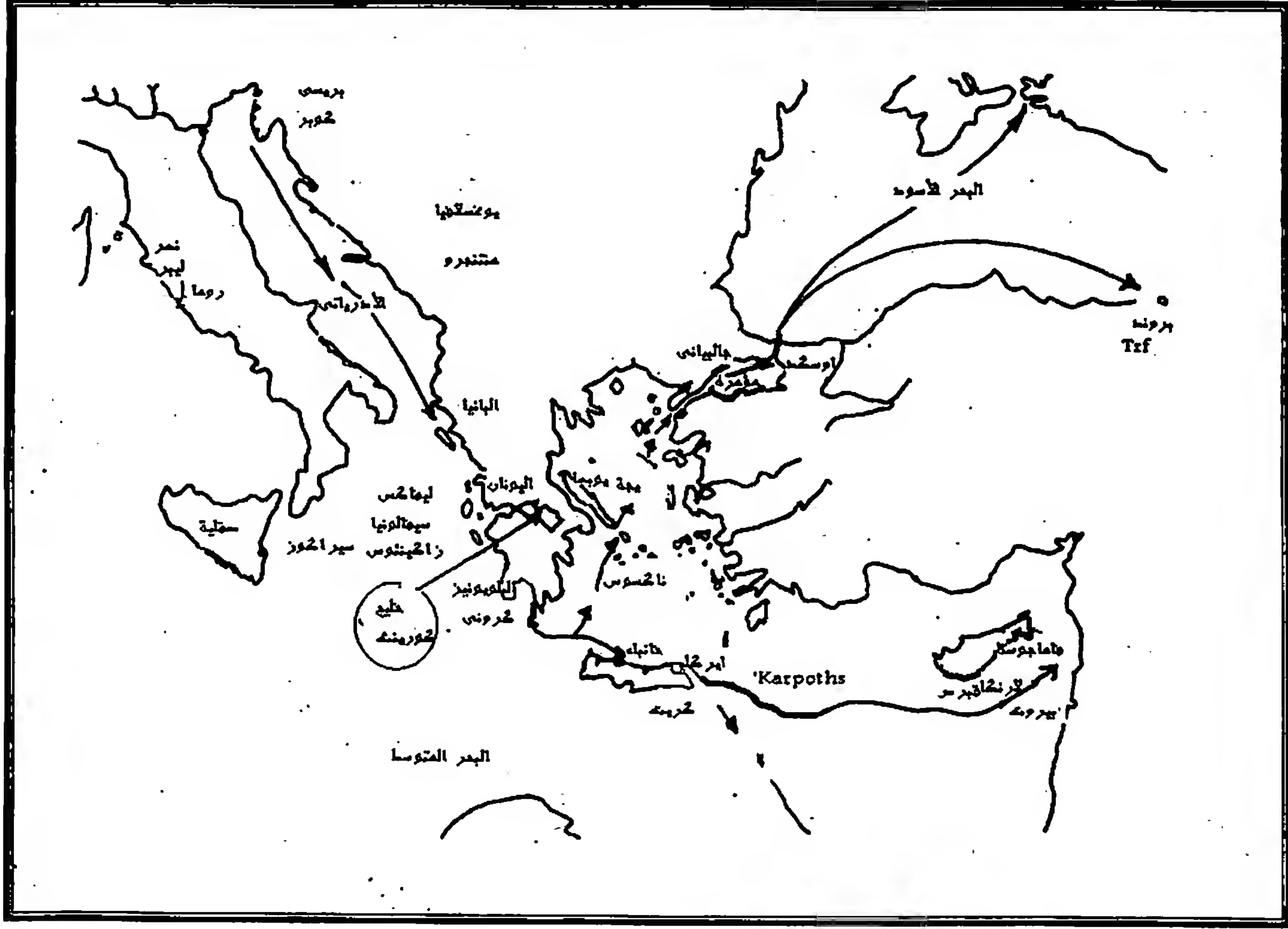
من خلال سجلات أرشيف جنوة (Archivo distato) جمع برودل البيانات التى أعانته على صياغة مضمون هذه الخرائط الستة التى تبين نشاط الجنويين فى مجال التأمينات البحرية من ١٥٦٦ إلى ١٥٧١. ويتضح من هذه الخرائط زيادة عملاء جنوة بشكل ملحوظ سنة ١٥٧١ وتعليل هذا قيام الحرب القبرصية بين البنادقة والعثمانيين، وزيادة مشاكل وصعوبات البندقية مما مكن الجنويين من استقطاب عدد كبير من عملاء البندقية، منافسيهم السابقين. ويلاحظ بالنسبة لخريطة ١٥٧١ أن الجنويين مدوا نشاطهم للأدرياتيك والشرق والأطلنطى والقنال الإنجليزى وبحر الشمال.

انظر الخرائط فى الصفحات التالية وفى

Braudel, F.:op. cit. pp. 618-621.

أنظر أيضا تعليق برودل على الخرائط فى: vol I, p. 621

ويذكر برودويل، وهو صاحب الكتاب الشهير عن تاريخ البحر المتوسط وعالمه فى عهد فيليب الثانى أنه فى الفترة من سنة ١٥٥٧ إلى سنة ١٦٢٧ احتلت المالية الجنوية مكانا بارزا فى تاريخ الرأسمالية، بل وامتد هذا فى الفترة من ١٦٤٠ إلى ١٦٥٠، ولقد تسبب الجنويون فى إفلاس إسبانيا، كما أدى إفلاس إسبانيا إلى دخول الجنويين عصرهم المالى المزدهر(٩٥). ولم يكن يتأتى لجنوة هذه الهيمنة المالية بدون جهاز بنكى دقيق فائق الخبرة، فقد أدى الدين العام الواقع على كاهل حكومة جنوة فى مطلع القرن الخامس عشر إلى إنشاء البنك الشهير.


يوغسلافيا
مونتنجرو
الأدرياتي
البانيا
روما
اليونان
سيفالونيا
زاكينتوس
سيراكوز
صقلية
خليج كورنثه
البحر المتوسط
البحر الأسود
'Karpoths
Trf

وقد أسست هذه المؤسسة بناء على قانون صدر سنة ١٤٠٥، وبدأ عملياته فى سنة ١٤٠٧ تحت اسم (Casi di S. Giorgio)

وقد أسست هذه المؤسسة بناء على قانون صدر سنة ١٤٠٥ وبدأت عملياتها فى سنة ١٤١٧ تحت اسم:

(Company of the tax concessions and Banks of st. George)

وكان أحد أهدافه حماية حملة الأسهم وأصحاب الديون وضمان دفع الفوائد لهم، كما كان يقدم القروض للحكومة. وقامت هذه المؤسسة بعدة احتكارات، من بينها احتكار الملح، وكان لها حق إدارة بعض القلاع والمناطق التابعة للدولة فيما وراء البحار، مثل كورسيكا بالإضافة لإدارة الدين العام، وكان البنك قد نما بسرعة، وأصبح له في سنة ١٤٢٩ فرعان(٩٦)

وقد سبق أن ذكرنا أن الحكومة الجنوية قد عانت انهيارا اقتصاديا نتيجة فقدان مستعمراتها ومراكزها التجارية فى الشرق، مما مكن الارستقراطية من الوثوب للحكم مرة أخرى، وقد لجأت الحكومة فى فترة الانهيار هذه إلى محاولة تدعيم موقف الجنيه الجنوى بإعطائه قيمة أعلى مما هو عليه فعلا فى سوق العملات، وقد أدت هذا إلى سلسلة خسائر حاقت بالبنك فقرر المديرون المسئولون إغلاقه فى سنة ١٤٤٤، إلا أنه مع الانتعاش الحاصل نتيجة الأوضاع التى سبق أن أشرنا إليها، أعيد تأسيس البنك مرة أخرى سنة ١٥٨٣(٩٧)

وإذا كان الوجود الإسلامى فى شرق أوروبا والبحر المتوسط قد أدى إلى هذا التحول الخطير فى اقتصاد جنوة، فان الجنويين قد استثمروا حالة الحرب بين القوى المسيحية والقوى الإسلامية استغلالا كبيرا من نوع آخر، لقد أدرك الجنويون حاجة الإسبان إلى السفن الحربية خاصة، والسفن بوجه عام فاندرجوا فى سلك صناعة السفن والتعاقدات البحرية، وهنا لابد من توضيح نقطة فارقة،

فقد كانت السفن الجنوية حتى الحربية منها - فى مرحلة الانهيار الاقتصادى، وبعد ذلك على نحو ما - ملكا للقطاع الخاص لا الحكومى، فقد خفضت الحكومة الجنوية أسطولها البحرى إلى أدنى حد، وكان فى بعض الأوقات لا يزيد على ست سفن، وفى نفس الوقت كان هناك بعض الملاك الشخصيين الذين كان فى مقدورهم تجهيز أسطول بأكمله، وهو ما لم تكن تستطيع الدولة فعله وقد عمل بعض الجنويين كبحارة خصوصيين وأصحاب سفن للإيجار بقصد الحصول على المكاسب والأموال، أكثر من رغبتهم فى الاستحواذ على سلطة، وكانوا يؤجرون سفنهم للحكام الأجانب بأفضل الشروط التى يمكن الحصول عليها. قد كان الجنويون الخبراء فى شؤون البحر على استعداد للتوجه إلى أى مكان، وحمل أية شحنات جريا وراء الربح، وكانوا يفضلون بشكل عام العمل فى خدمة البرتغال وإسبانيا، بل إنهم هم الذين جهزوا رحلات السفن الذاهبة للكشف الجغرافى مما أدى إلى ثورة فى الطرق البحرية. وكان الجنويون هم الذين يقدمون العمالة الماهرة فى مجال صناعة السفن والمهن البحرية عامة(٩٨).

ولنضرب مثالا واحدا فيه الكفاية لتوضيح مدى استثمار الجنويين لسفنهم فى النقل والرحلات الرسمية والحروب عبر المتوسط من خلال الظروف التى هيأها الصراع المسيحى الإسلامى. لقد أدى خلق دوريا (Dorea) لعلاقات قوية ورسمية إلى جانب الحاجة الإسبانية الماسة للسفن الحربية التى تستطيع أن تحمل عبء الدفاع البحرى ضد العثمانيين ومجاهدى البحر إلى أن انفتح الباب واسعا وعلى مصراعيه أمام أهل جنوة فى مجال التعاقدات البحرية. فأسطول جنوة بقيادة دوريا كان هو ضمان شارل الخامس للسيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، كما كان هذا الأسطول يشكل خط الدفاع الأول عن العالم المسيحى، ضد (الهجوم الإسلامى) وكانت نواة هذا الأسطول مكونة من سفن يمتلكها دوريا شخصيا، وكان يقوم بتأجيرها لإسبانيا إذن فقد كان دوريا متعاقدا بحريا جاهزا

وهاما، إذ كان مالكا لاثنتى عشرة سفينة عندما التحق بخدمة شارل الخامس سنة ١٥٢٨. وفى سنة ١٥٥٢ كان دوريا يمتلك ٣٩ سفينة.

ولقد كانت سفن دوريا هذه هى التى تحكم إيقاع ونبض الجهود الحربية الإسبانية فى البحر المتوسط ضد العثمانيين فى السنوات الوسطى من القرن السادس عشر(٩٩).

إلى هذا الحد كانت إسبانيا كيانا هشا. وكان دوريا مسئولا عن تنظيم رحلات الزيارات الضرورية التى كان شارل الخامس يقوم بها خارج إسبانيا. وثمة عدد آخر من النبلاء الجنويين قد سلكوا طريق دوريا خاصة فى مجال التعاقدات البحرية، وعرفت أسر بعينها فى هذا المجال، نذكر منها نيجرون (Negrone) وأمبريال (Imperiale) وجريمالدى (Grimaldi) وأوسوديمار (Usodimare) وسيجولا (Cigola)(١٠٠).

ولقد أسهمت السفن الجنوية بنصيب الأسد فى نقل المعادن النفيسة الإسبانية، وبعد أن كانت هذه المعادن تصل إلى إسبانيا ومنها إلى سائر أنحاء أوروبا، أصبحت تتنقل من لشبونة إلى جنوة التى أصبحت تتولى هى التوزيع، واستمر دورها هذا قائما حتى نضبت سبائك الذهب الإسبانى الأمريكى فى العقد الثالث من القرن السابع عشر(١٠١)

لسنا نبالغ إذن إذا قلنا أن تأثير المسلمين فى صياغة التاريخ الأوربى الحديث، موضوع جدير بالدراسة، ولم يلق العناية الكافية، كما لا نبالغ إن قلنا إن دراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تظهر لنا الأوضاع الحقيقية، وتضيف للتاريخ السياسى عمقا، يظل بدونها غير واضح الأبعاد والملامح. لقد أثر المسلمون فى صياغة التاريخ الأوربى بمختلف جوانبه، وهذا البحث مثال

على ذلك، فألفاظ مثل: الترك والقراصنة والمسلمون لا تفتأ تتردد فى كتابات بعض الباحثين فى التاريخ الإيطالى فى هذه الحقبة بل والتاريخ الأوربى قاطبة[١٠٢].

هوامش المبحث الثانى

(١) Morris, Jan: The Venecian Empire.(London: Faber & Faber, 1980), p. 6. وانظر وصفا حيا للبندقية قدمه لنا الكاتب التركى حاجى خليفة، والذى ترجمت الفصول الأربعة من كتابه للإنجليزية.

Haji Khalfeh: The history of the marltime wars of the Turks, Translated by James Mitchell (London: Johnson Co, 1968). p.19.

(٢) انظر الخريطة بآخر البحث

(٣) Morris, Jan,. op.cit., p. 6.

(٤) Ibid., p. 7.

Cipollo, Carlo M: "The economic decline of Italy" in : Economic history Review. 2nd ser. 5 (1952), pp. 178-187.

Braudel, Fernand & Spooner Frank: "Prices in Europe from 1450 to 1750" in Cambridge economic history of Europe vol. Iv.pp. 385-486. (Cambridge: Cambridge University Press, 1967)

Braudel, Fernand: La Mediteranee et le monde mediteraneen a lepoque de Philippe II. 2nd ed. (2 vols, paris, colins, 1966. 2 vols)

وقد ترجم هذا الكتاب الوثائقى الهام الذى رجع فيه مؤلفه لمعظم أرشيفات أوروبا إلى الانجليزية وعلى هذه الترجمة الإنجليزية اعتمدت فى إحدى مراحل البحث.

The Mediterranean & the Mediterranean world in the age of philippe II. 2 vols N,Y., Harper, Colophon Books, 1972.

(٥) Heyd, W.: Histoire du commerce du levant au Moyen age. (Leipizig: - 1986) Rapp Richard Tllden: industry & economic decline in seventeenth century venice.(London: Harvard University Press. 1976) p. 2.

(٦) Hyed, w: op. cit, p. 8.

(٧) Lyber, A. H: "The Ottoman turks & the routes of oriental trade" in "English historical Review" 1915, 30, pp. 577-588.

(٨) Lane, Frederic c: "venetian shipping during the commercial revolution" in: American Historical Review, 38 (1933), pp. 219 - 239.

(٩) Rapp, Richard Tuden. op. cit., p 3.

(١٠) انظر الخريطة رقم (٢).

(١١) انظر الخريطة رقم (١).

(١٢) انظر الخريطة رقم (١)، (٢).

(١٣) انظر الخريطة رقم (١)

(١٤) ديل، شارل: البندقية جمهورية ارستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق أسكندر. (القاهرة: دار المعارف ١٩٤٨) إصدار جمعية التاريخ الحديث.

(١٥) نفس المرجع. ص٤٥. والواقع أن السيطرة على هذين الثغرين كانت بمثابة السيطرة الاقتصادية الكاملة على المورة.

(١٦) نفس المرجع ٤٥ . ٤٦

(١٧) انظر الخريطة رقم (١).

(١٨) استخدم البنادقة نظام البودستا Podestat(Podesta)، والكلمة من اللاتينية Po-

testas بمعنى سلطة أو قوة. وهو منصب أنشأته البندقية لتأكيد الوحدة السياسية والإدارية لممتلكاتها.

ويعاون شاغل هذا المنصب، ستة أعضاء وخمس من القضاة للفصل فى المنازعات القضائية وعنوان للشؤون المالية. ولشاغل المنصب نواب فى كل مركز أو مستعمرة ديل، شارل: المرجع السابق ص٤٧ ـ ٤٨.

(١٩) الواقع أن البنادقة كانوا يتاجرون فى المعلومات، اذ كانوا يقدمونها لأسبانيا أيضا كما يتضح من ثنايا هذا البحث.

(٢٠) Coles, Paul: The Ottoman impact on Europe (London: Thames Hadson, 1968) pp. 133 - 134.

(٢١) انظر الخريطة رقم (١)

(٢٢) انظر الخريطة رقم (١)

(٢٣) Coles, Paul, op. cit, p. 135.

(٢٤) تعرض (Braudell) لنشاط دوريا بالتفصيل فى صفحات متفرقة من كتابه الشهير عن تاريخ البحر المتوسط، فى الجزء الأول.

Braudel, F., op. cit., p. 257, 339,

868,975,905,906,909,910,914,919.. etc وقد أورد برودل مجموعة خرائط هامة، اعتمد فى المعلومات الواردة بها على جملة وثائق هامة، وقد ألحقتها بهذا البحث، وهى. أى هذه الخرائط. توضح الأرقام، كثيرا من أفكار هذا البحث.

(٢٥) انظر هذا البحث. ص ١٨.

(٢٦) Coles, p.: op. cit., pp. 135- 136

(٢٧) Ibid, pp. 136 - 137

(٢٨) Ibid., p. 137.

(٢٩) Ibid., pp. 137 - 138

(٣٠) انظر هذا البحث ص ٨ ـ ٩

(٣١) Coles, paul, op. cit., p. 138

(٣٢) Ibid., p. 136 and passim

(٢٣) Kamen, Henry, spain in the later 17 century, 1665 - 1700. (London: Longman, 1980). pp. 59, 281.
Lea, Henry Charles, The Moriscos of Spain, their conversion & expulaion (Philadelphia: lea Brothers, 1901) p. 341.

(٢٤) Read, Jan., The Moors of Spain & portugal. (London. Feber & Faber, 1974) Lea. H. C., op. cit., p.II.

(٢٥)المارافيد عملة إسبانية، كان يسميها الإسبان بالعملة البربرية، وكانت أصغر وحدات النظام النقدى القشتالي، وكان الريال الإسبانى يساوى ٢٤ مارافيد.
Hamilton, E., war and price in spain, 1651 - 1800 (Cambridge: 1947). p. 38. Kamen, H., Ibid, p. XII.

(٣٦) الدوكـــات (Ducat) وتسمى أيضا دوكادو وهى وحدة نقد كانت تساوى ١١ ريالا أسبانيا وكانت الدوكات تستخدم للدفع فقط داخل قشتالة، أما خارج قشتالة فيكون الدفع بالفضة ويحسب الـ Escudos وهذا الأخير أقل قيمة من المارافيد، والاسكود عملة ذهبية.

(٢٧) Lea, H. C., op. cit. p 573

(٢٨) Ibid, p. 359.

(٢٩) Ibid, pp. 340 - 341.

(٤٠) Ibid, pp. 340 - 342

(٤١) Ibid., p. 340

(٤٢) Coles, p., op. cit., p. 138.

(٤٣) يقصد حكام البندقية.

(٤٤) Coles, p., op. cit., p. 138.

(٤٥) Ibid., p. 138.

(٤٦) Ibid. p. III

(٤٧) Ibid., p. 112.

(٤٨) Ibid., pp. 130 - 131

Morris, Jan.. op. cit., p. 87. (٤٩)

(٥٠) ويذكر اليوت أن بعض سكان كريت من أصل عربى، عند الفتح العثمانى.
Eliot, Charles, Turkey in Europe. (London: Frank Cass, 1965)p. 305

Morris, J: op.cit., p.83 (٥١)

(٥٢) كان من عادة الدوج دعوة بعض من يثق بهم لاستشارتهم، لذلك سمى اجتماعه بهم مجلس المدعوين، أو مجلس الشيوخ، ثم أصبح هذا جزءا من نظام الحكم فى البندقية. البندقية، وترجع أصول هذا المجلس إلى القرن الثانى عشر للميلاد . ديل، شارل: المرجع السابق. ص.ص ٦٩ـ ٧٠

(٥٣) كانت الطبقة الارستقراطية فى البندقية تحد من سلطة الدوج وتعاونه فى أمور القضاء والادارة والحكم ومن بينهم كان يتم اختيار أصحاب المناصب الدينية والمدنية الكبرى، وقد منعت الارستقراطية الجنوية الأدواج من الاستئثار بالسلطة منذ سنة ٩٧٦، وكانت الارستقراطية مكونة من الأسرات العريقة وكانت ثرواتهم سندا لهم فى الاحتفاظ بسلطانهم، وكانوا طبقة تحاول كبح جماح طبقة الحرفيين والطبقة الوسطى، وتحاول الحد من سلطة الأدواج فى نفس الوقت، ولذا سميت البندقية بالجمهورية الارستقراطية. ديل، شارل: نفس المرجع. ص ١٦، ١٧ ٦٨.

(٥٤) المجلس الكبير يتكون من ٤٨٠ عضوا، ويختار اعضاؤه ١٢ ناخبا (٢ لكل حى من أعضاء البندقية) وهم يعينون لمدة عام واحد، وقبل خروجهم من مناصبهم يقومون بتعيين ١٢ ناخبا بدلا منهم. أما مستشارو الدوق فكانوا فى الفترة موضوع الدراسة ومنذ سنة ١١٧٨ ستا، وهم يكونون المجلس الصغير.

ديل، شارل: نفس المرجع ص ٦٩.

(٥٥) السجل الذهبى كان يسجل فيه أسماء الأسرات الارستقراطية وإنسابهم، وكان سجلا مقفلا، إلا فى مراحل الانهيار الاقتصادى الشديد حيث كانت الحكومة تعرض على الناس كتابة اسمائهم فى السجل الذهبى مقابل القروض. وقد تم إحراق هذا السجل على يد نابليون بونابرت عند غزوه للبندقية. انظر: ديل، شارل: نفس المرجع. ص ص. ٢١١ ـ ٢١٢.

(٥٦) نفس المرجع ص٢١٢ ـ ٢١٣

(٥٧) نفس المرجع ص ٢١٤

(٥٨) Morris J.: op. cit., p. 80

(٥٩) ديل، شارل: المرجع السابق، ص١٤٣ - ١٤٤

(٦٠) Coles, p. op.cit., p. 91

ويذكر الكاتب التركى حاجى خليفة أن العثمانيين كانوا يسمون جزيرة ليبانتو أيضا باسم ابنابخت Enabekht.

Haji Khalifeh, op. cit., p. 19

(٦١) ديل، شارل: المرجع السابق. ص ١٧٥.

(٦٢) Morris, J., op, cit., p.10.
"If the venetiansneeded Islam, Islam did not greatly need Venice"

(٦٣) Ibid., p. 9

(٦٤) Ibid., p. 10

(٦٥) Ibed., pp. 10. 11.

(٦٦) Luzzatto, Gino, Economic history of Italy from the fall of the Roman Empire to the beginning of the sixteenth century. (London, Routledge and Kegan Paul.1961) Translated from the italian by Philip Janes. pp. 149 - 150
Aston, Trevor, Crisis in Europe 1560 - 1660, NY, Doubleday. 1967. p.3.

(٦٧) Baron, Hans, The Crisis of the early italian renaissance, (princeton: (New Jersey) Princeton university.Press, 1966 p 387.

(٦٨) Morris, J., op. cit., pp. 8 - 10

(٦٩) Rubinstein, Nicoli: Michilozzo & Niccolo in Chios. in: Cultural aspects of the Italian Renaissance.. etc p. 220.

(٧٠) Coles, p. op. cit, p. 7

(٧١) Baron: H., op. cit., p. 186

(٧٢) Ibid., pp. 373, 376, 394, 396.

(٧٣) ديل، شارل: المرجع السابق، ص ١٦٧.

Luzzatto G., op. cit., p. 148. (٧٤)

Coles, p., op.cit., pp. 139 - 144 (٧٥)

(٧٦) على الساحل الشمالى للبحر الأسود.

Ibid., p. 139. (٧٧)

Coles,p., op. cit., p (٧٨)

وقد قدم الكاتب التركى حاجى خليفة وصفا حيا لهذه الجزر وأهميتها الاقتصادية فى كتابه تحفة الكبار فى أسفار البحار، وقد رجعت للترجمة الإنجليزية.

Haj Khalifeh, The history of the martime wars of the turks Translated by James Mitchell. Chapters I to IV. (London: Johnson Co. 1968). pp. 8-1095.

Coles, p., op. cit, pp. 139 - 140 (٧٩)

Ibid., p. 140 (٨٠)

Ibid., pp. 140 - 141 (٨١)

Ibid., p. 140 (٨٢)

Ibid., pp. 140 - 142 (٨٣)

Luzzatto, G., op. cit., p. 76. (٨٤)

Ibid., pp. 76- 86 (٨٥)

Ibid., p. 76. (٨٦)

(٨٧) نتيجة التخريب السكانى وعدم الاستقرار الذى تعرضت له إسبانيا منذ أواخر القرن الخامس عشر، وحتى مطلع القرن السابع عشر، حيث تم طرد ملايين من غير الكاثوليك خارج أسبانيا.

Philips, Carla Rahn: The Spanish word trade 1700-1780. (٨٨) in: The Journal of economic history 100 IV pp. 770-775.

ورغم أن الحد الزمنى كما يتضح من عنوان هذا المقال هو سنة ١٧٠٠ بالا أنه رجع إلى

ما قبل ذلك لتجذير بحثه، كما أشار بشكل عام إلى ظروف إسبانيا السكانية منذ مطلع القرن السابع عشر كسبب لانهيار تجارة وانتاج الصوف فى إسبانيا.

(٨٩) Coles, p., op. cit., p. 140.

(٩٠) Ibid., pp. 149 - 150

(٩١) Ibid., p. 141

(٩٢) Ibid., p. 171

(٩٣) Spooner, Frank C., Leconomic mondiale of les frappes monetaires en France 1493 - 1680 (Paris, 1956). p. 21.

(٩٤) Braudel, Fernand, The Mediterranean & Mediterranean world in the age of Philipp II. (N. Y: Harper Cokophon, 1973). 11 vols. p. 503

(٩٥) Ibid., p, 501

(٩٦) Luzzatto, G., op. cit., pp. 149 - 150

(٩٧) Ibid., p. 150

(٩٨) Ibid., p. 148. Coles, p., op, cit., p. 142

(٩٩) Ibid., p. 142

(١٠٠) Ibid., p. 143.

(١٠١) Kamen, H., op. cit., p. 13.
Kamen, H., war of succession, pp. 25 - 83 - 84
Eilliot, J. H., op.cit., pp. 361 - 371

(١٠٢) والواقع أن أى دراسة عن تاريخ أوروبا النهضة العامة وإيطاليا على نحو خاص لا تخلو من إشارات إلى تأثيرات إسلامية أو عثمانية على أوروبا. انظر على سبيل المثال:
Jacob. E. F. (ed): Italian Renaissance Studles (London: Faber & Faber, 1960) pp. 113, 254, 469, 471, 472.. etc.

ملحق (١)

ادواج البندقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

(٧٦) ليوناردو لوريدانو (١٥٠١- ١٥٢١)

(٧٧) انطونيو جريمانى (١٥٢١ ـ ١٥٢٣)

(٧٨) أندريا جريتى (١٥٢٣ - ١٥٣٩)

(٧٩) بطرس لاندو (١٥٣٩ ـ ١٥٤٥)

(٨٠) فرشسكو دوناتو (١٥٤٥ -١٥٥٣)

(٨١) مارك أنطونيو تريفيزانو (١٥٥٣ ـ ١٥٥٤)

(٨٢) فرانشسكو فنير (١٥٥٤ ـ ١٥٥٦)

(٨٣) لورانو بريولى (١٥٥٦ ـ ١٥٥٩)

(٨٤) جيرولامو بريولى (١٥٥٩ ـ ١٥٦٧)

(٨٥) بطرس لوريدانو (١٥٦٧ ـ ١٥٧٠)

(٨٦) لويجو متشنجو (١٥٧٠ ـ ١٥٧٧)

(٨٧) سباستيانو نوفنير (١٥٧٧ ـ ١٥٧٨)

(٨٨) نيقولا دابونيتى (١٥٧٨ ـ ١٥٨٥)

(٨٩) بسكالى شيكونا (١٥٨٥ ـ ١٥٩٥)

(٩٠) مارين جريمانى (١٥٩٥ ـ ١٦٠٦)

(٩١) ليوناردو دوناتو (١٦٠٦ ـ ١٦١٢)

(٩٢) مارك أنطونيو ميمو (١٦١٢ ـ ١٦١٥)

(٩٣) جيوفانى بامبو (١٦١٥ ـ ١٦١٨)

(٩٤) نيكولو دوناتو (١٦١٨)

(٩٥) انطونيو بريولى (١٦١٨ ـ ١٦٢٣)

(٩٦) فرنشسكو كنتيارينى (١٦٢٣ ـ ١٦٢٤)

(٩٧) جيوفانى كورنارو (١٦٢٤ ـ ١٦٣٠)

(٩٨) نيكولو كونتارينى (١٦٣٠ ـ ١٦٣١)

(٩٩) فرانشسكو ارتزو (١٦٣١ ـ ١٦٣٦)

(١٠٠) فرنشسكو موليني (١٦٣٦ ـ ١٦٥٥)

(١٠١) كارلو (شارل) كونتارينى (١٦٥٥ ـ ١٦٥٦)

(١٠٢) فرانشسكو كورنارو (١٦٥٦)

(١٠٣) بترو كشيو فاليدى (١٦٥٦ ـ ١٦٥٨)

(١٠٤) جيوفانى بيزارو (١٦٥٨ ـ ١٦٥٩)

(١٠٥) دومنيكو كونتارينى (١٦٥٩ ـ ١٦٧٤)

(١٠٦) نيكولو ساجريدو (١٦٧٤ ـ ١٦٧٦)

(١٠٧) لويجى كونتارينى (١٦٧٦ ـ ١٦٨٣)

(١٠٨) مارك أنتونيو جستنيانى (١٦٨٣ ـ ١٦٨٨)

(١٠٩) فرنشسكو موروسينى (١٦٨٨ ـ ١٦٩٤)

(١١٠) سلفستر فالير (١٦٩٤ ـ ١٧٠٠)

وكان آخر دوج للبندقية هو لوفيجو مانين (١٧٨٨ ـ ١٧٩٧)

المبحث الثالث

عن الاقتصاد الإسبانى وتفاعلات طرد المسلمين فى القرن ١٦ وبداية القرن١٧.

إنهاك الاقتصاد الإسبانى فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر نتيجة إخراج المسلمين (نشر فى مجلة جامعة الملك عبد العزيز. الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٠٨/ ١٩٨٨)

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث أفكارًا جديدة، تُصحح أخرى قديمة وخاطئة عن موقف الإسبان من المسلمين عقب سقوط غرناطة وطوال القرن السادس عشر، وحتى أخرجوا من ديارهم نهائيًا فى مطلع القرن السابع عشر.

وتُثبت هذه الدراسة من خلال وثائق منشورة لم يُراجعها عدد كاف من الباحثين المسلمين أن عامة الناس، وأصحاب الأراضى والمصانع

خاصة، لم يؤيدوا إخراج المسلمين، لما فى ذلك من أضرار اقتصادية ستحيق بالبلاد، وهذا ما أثبته التاريخ بعد ذلك.

كما تتناول هذه الدراسة أثر حركة جهاد البحر التى قام بها سكان شمال إفريقيا والدولة العثمانية فى إجهاض الاقتصاد الإسبانى، وأثر ذلك فى توجه أهل جنوة الماهرين فى التجارة والاقتصاد نحو إسبانيا يستنزفونها بالقروض الربوية وغيرها، مما جعل إسبانيا فى هذه الفترة، لا كما تصورها المراجع، أمبراطورية كبرى، وهى بالحقيقة، كيان هش. ولم يكن من الممكن التوصل إلى هذه النتائج الجديدة دون الاهتمام بالجانب الاقتصادى للتاريخ، ذلك الفرع المهم الذى لم يلق الاهتمام الكافى.

مقدمة

لم يكن إخراج المسلمين من الأندلس عقب سقوط غرناطة مطلبا شعبيًا. وتلك حقيقة أثبتتها الدراسات الوثائقية(١)، وإنما كان بالدرجة الأولى والأخيرة مطلبا كنسيا عارضه العامة من الناس، وعارضه حكام الولايات، وعارضه بشدة أصحاب الأراضى من الإسبان(٢) فقد كان عداء الإسبان لغير المسيحيين منصبا بالدرجة الأولى على اليهود، لأسباب دينية(٣) وعرقية(٤) واقتصادية(٥). والذين أجبروا على الخروج من الأندلس فى أعقاب سقوط غرناطة هم اليهود وليس المسلمين الذين تُرك لهم فى البداية حرية الاختيار بين الإقامة والرحيل(٦) ثم مالبث الكنسيون أن فرضوا رأيهم فأصبح الاختيار بين الرحيل وقبول التعميد(٧).

وفى مطلع القرن السابع عشر لم يعد ثمة خيار، فأجبروا جميعًا على الرحيل(٨)

وتثبت هذه الدراسة بالوثائق وبالرجوع لمراجع كتبها إسبان مؤرخون(٩) واقتصاديون(١٠) أن خروج وإخراج المسلمين الإسبان Los Moriscos كان نكبة أضرت بالاقتصاد الإسبانى، كانت واضحة جلية طوال القرن السادس عشر والسابع عشر، واستمرت ذيولها بشكل صارخ فى القرن الثامن عشر أيضا(١١). فليس صحيحًا ما ذكره بعض الباحثين من أن سقوط غرناطة كان «فاتحة عصر إسبانيا الذهبى»(١٢)

ولم يكن مسلمو الأندلس بمعزل عن التيارات الإسلامية فى الخارج، وهم يواجهون محنتهم تلك. والتى ثبت بعد ذلك بما لا يدع مجالا للشك أنها أيضا كانت وبالدرجة الأولى محنة للإسبان، وإنما كانت الأيدى تمتد إليهم من مسلمى شمال إفريقيا. وتشير المصادر إلى أن جهاد البحر أو ما تسميه المراجع الأوروبية باسم «القرصنة فى البحر المتوسط»، كان يشكل نزيفا حادا للاقتصاد الإسبانى، وأن الشواطئ الإسبانية كانت فى حالة تهديد دائم. ومما يدعو للسخرية أن معظم الأساطيل الإسبانية التى كانت تخوض الحرب فى البحر المتوسط وعلى سواحله الجنوبية كانت مستأجرة وليست ملكًا للتاج الإسبانى(١٣)، مما استنزف سيل المعادن النفيسة التى كانت ترد لإسبانيا من العالم الجديد(١٤). كما أن عدم تفرغ الحكومة الإسبانية للأمور الداخلية نتيجة هذا الصراع أتاح لأهل جنوه الاستئثار بالأمور المالية داخل إسبانيا، وجعلهم يحصلون على أرباح مهولة نتيجة تأجيرهم السفن وإقراضهم الحكومة الإسبانية نظير أرباح مجزية(١٥). مما أضاع على إسبانية جل أموالها.

أما الصراع الإسبانى مع الدولة العثمانية وسيطرة هذه الأخيرة على تجارة الشرق، فقد أدى إلى خنق إقتصاد البندقية(١٦)، ولكنه أدى فى نفس الوقت إلى توجيه أهل جنوه توجها غربيا نحو إسبانيا بما لديهم، أى أهل جنوه، من خبرات

مالية وتجارية لا تحد، فأتاح لهم ذلك استنزاف الشعب الإسبانى(١٧)، وذلك الاستنزاف الممثل حتى يومنا هذا فى حساسية أهل إسبانيا ضد الجنويين(١٨).

كما أن الدولة العثمانية كانت شريكا فعالا، بل قائدا لحروب الجهاد البحرى فى المتوسط(١٩) رغم هزيمتها فى معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م(٢٠).

لقد تضافرت عناصر إسلامية ثلاثة فى الجهاد ضد الإسبان هى: المسلمون الإسبان، وسكان شمال إفريقيا، والعثمانيون. ورغم أنه من الصعب الفصل بين دور كل عنصر من العناصر الأخرى، إلا أن هذا ضرورى لأغراض هذه الدراسة. ورغم أنه من الصعب أيضا أن نفصل بين الآثار الاقتصادية لجهاد المسلمين ضد الإسبان، والآثار الاجتماعية والسياسية، إلا أننا حاولنا ذلك قدر الإمكان، اللهم إلا إذا كان التأثير الاقتصادى ملتصقا لا فكاك منه بالتأثيرات السياسية والاجتماعية. ومن خلال دراسة هذه التأثيرات الاقتصادية اتضح أن إسبانيا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، لم تكن دولة عظمى كما تظهرها مراجع التاريخ العام، وإنما كانت عملاقا من ورق، إن صح هذا التعبير. وبسبب هذا الصراع الإسلامى الإسبانى لم يتم توحيد إسبانيا إلا من الناحية الشكلية(٢١). وظل الصراع بين ممالك إسبانيا قبل التوحيد مستمرا بعد التوحيد الذى اتخذ طابعا شكليا(٢٢) لدرجة أن بعض المراجع تذكر أن تنحى شارل الخامس عن العرش وتقسيم إمبراطوريته بين أبنه وأخيه كان بسبب الصراع مع المسلمين(٢٣). وفى ظل هذه المعلومات غير الشائعة، وفى ظل ما قدمته لنا الوثائق والمصادر غير المطروقة، هل يمكن لنا القول أن إسبانيا خرجت من صراعها مع المسلمين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، خروج المنتصر؟؟ هذه الدراسة تثبت العكس، وهى أيضا مصداقا لقوله تعالى«إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله»(٢٤) وقوله تعالى:«إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون»(٢٥)

كان الحكام وأصحاب الأراضى ينظرون للمسلمين الإسبان كعناصر منتجة، ويعتبرونهم مفيدين للغاية فى زراعة الأرض وتحمل المصاعب الجسام حتى إن مثلا إسبانيا شاع فى هذه الفترة ترجمته العربية، إن مزيدا من المسلمين الإسبان Los moriscos يعنى مزيدا من الأرباح والمكاسب، وترجمه الإنجليز قائلين: The more moors, the more profits أما نصه الإسبانى فهو: Mien-tras mas moro, mas gananicias[٢٦] لذا بذل أصحاب الأراضى والأعمال، بل حتى الطبقة الحاكمة كل ما فى وسعهم للإبقاء على الوضع الراهن[٢٧] Status quo«فإن أى اضطرابات ستؤدى إلى خسارة» بل إن أصحاب الأراضى «كانوا أحيانا يقفون إلى جانب المسلمين العاملين لديهم والذين يعارضون التعميد ولا يرغبون فى التحول للمسيحية»[٢٨] بل إن هذه الرغبة فى عدم خروج أو إخراج المسلمين من ديارهم الإسبانية اتخذ شكلا رسميا «ففى سنة ١٤٩٥م نجد المجلس التشريعى، البرلمان فى Tortosa[٢٩] يلتمس من فرديناند عدم طرد المسلمين من كتالونيا»[٣٠] ولم يكن تحذير أصحاب الأعمال والأراضى والحكام المحليين من إخراج المسلمين وما يجره من عواقب وخيمة على الاقتصاد الإسبانى وليد القرن السادس عشر، بل لقد كان تحذيرا قديما حتى قبل سقوط غرناطة، لكن السلطات الكنسية كانت هى وحدها التى تلح مهددة كل من يعترض بالطرد من رحمتها[٣١]. وعندما شبت ثورة المسلمين فى بلنسية سنة ١٥٢٦ رفض أصحاب الأراضى فى هذه المناطق أن يتعاونوا مع الحكومة فى قمعهم، الأمر الذى حدا بمدريد إلى إناطة مهمة قمعهم والقضاء عليهم إلى فرق من المشاة الألمان جلبوا خصيصا لذلك، مما أدى إلى كثير من المعاناة والتكاليف الباهظة[٣٢]. وتفسير ذلك يسير فى الواقع، فهو يدل على أن الإسبان لم يكونوا ينظرون للمسلمين كجماعات مستغلة مصاصة للدماء، كما أن السكان المسلمين

فى كثير من المناطق خاصة فى بلنسية وأراجون «كان يمثلون السكان الأساسيين المنخرطين فى سلك العمالة الزراعية والصناعية، حيث كانت المصانع وخصوبة التربة قد جعلتهم مصدرا نفيسا، لا يقدر بثمن، للإرستقراطية المحلية التى كانت تستغلهم كعمال زراعيين. وفى هذه المناطق كانت سياسة الحكومة تمثل إحباطا للنبلاء الذين كانوا مهتمين بحماية القوى العاملة التى اعتبروها شيئا جديرا بالنضال من أجله»(٣٣)

وقد عمد الكنسيون إلى تزييف الحقائق بعد خروج المسلمين Los moriscos خروجا نهائيا فى مطلع القرن السابع عشر، وراحوا يتغنون بأفكار أثبت التاريخ الاقتصادى خطأها، لدرجة أن أحد الباحثين يذكر بالحرف الواحد أن «الكنسيين عملوا بحماس ليكونوا سببا فى حلول الكوارث والنكبات بإسبانيا»(٣٤) ومع هذا كانت أناشيدهم مرتفعة بالنصر المزعوم، إذ أثبتت الأيام أن هذه الأناشيد كانت بمثابة نعيق بوم على طلّل خرب. فالكنسى فراى بليدا Fray Bleda يؤكد للملك كذبا أن خزائنه بعد أن خرج المسلمون ستمتلئ، وديونه ستسدد، والأرض سيتم حرثها، وستنتعش الأرض الخراب «وتغدو خصبة غنية» وسيحل بإسبانيا عهد ذهبى تكون فيه «موحدة محررة من الأعداء الداخليين»(٣٥). ثم تأخذه الحماسة المبالغ فيها فيقول:«إنه لأكثر عهود إسبانيا عظمة وفخامة منذ قدوم المسيح، وإنها لمناسبة سعيدة أن نتحرر من الوثنية(٣٦،٣٧) أما جودالاخارا Guadalajara فلم يكن يقل حماسه عن بليدا. فقد ذكر أن اقتران الكواكب السعيدة فى كانون الأول ديسمبر سنة ١٦٠٣م، كما تشير «كل النبوءات وأصول العرافة الإسبانية والعربية» والتى قد راجعها بنفسه، تؤكد أن إسبانيا وقد تخلصت من المسلمين «ستستعيد القدس وستحطم القوى الإسلامية»(٣٨). يستطرد جودالاخارا متنبئا بأوضاع إسبانيا الاقتصادية بعد إخراج المسلمين. تلك التنبؤات التى تحقق عكسها. فيقول «إن المسلمين الإسبان وإن زعموا أن الرخاء فى ركابهم يسير،

وأن الرخاء سينقطع عن إسبانيا إن تركوها.. إلا أنه منذ طردناهم ونحن فى وفرة ورخاء، فقد انخفض سعر القمح، وأصبحت التجارة أكثر تحررا، وخلت الشواطئ من القراصنة، وأضحى الناس يسافرون بلا خوف، ويرحلون بلا خطر، وغدت العملة صحيحة لا تندس بينها عملة زائفة، وخلت أرضنا من الخيانة العظمى للوطن»[٣٩] لكن الكُتاب الجادين رأوا فى مثل هذه الآراء مجرد «تعزية فلسفية» لتعويض خسائرهم، على اعتبار أن بعض المذاهب المسيحية «تحتقر المكاسب المادية»[٤٠] وليس أدل على هذا من أن بليدا الذى أشرنا إليه سابقا عاد سنة ١٦١٨م ليعترف ببعض التأثير لغياب المسلمين، وإن كان قد ذكر أنه تأثير «ضئيل»[٤١] وراح يلتمس التوقعات المطمئنة، فإذا كانت الموارد الكنسية قد قلت إلا أنها فى رأيه ستعود للانتعاش فى حدود سنوات ثمانية أو تسعة، وإن كان أصحاب الأراضى يعانون من جدب أراضيهم حيث لم يعد فى إمكانهم ريها بسهولة، بعد غياب المسلمين، لكنهم سيحتاجون لعدد أقل من العمال المسيحيين[٤٢] ولم تتحقق توقعات بليدا، ففى تحليلات أخرى ذكر أن إخراج المسلمين أدى إلى نقص رهيب فى عائدات الكنائس وعائدات النبلاء، وكان هذا واضحا فى بلنسيه Valencia وسرقسطة Saragossa وترازونا Tarazona، إذ قل الدخل إلى حوالى النصف[٤٣]. وهى نسبة كبيرة. وفيما يلى نورد أرقاما أخرى من مصادر أرشيفية تؤكد ما اعترى الاقتصاد الإسبانى من خلل كبير فى مناطق مختلفة.

ففى جنديا Gandia وأوليفا Oliva وفوتيذان Fuentedan ومورلا Murla التى كانت تضم أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ مسلم كتابع إقطاعى Vassals, كانت أراضيها تغل عائدا مقداره ٢٥,١٥٣ ليبرا Libras[٤٤] و ٨ صولد Sueldos[٤٥] وفى سنة ١٦١٠م نقص الدخل إلى ١٥,٣٤٦ ليبرا و ٥ صولد، ثم عاد فارتفع سنة ١٦١١م إلى ١٧,١٧٩ ليبرا و١٠ صولد و ٣ دينيرو Dineros[٤٦] وفى عشرة قرى من

قـــرى جنديا Gandia كان هناك ٤١٧ مسكنا بلا سكان، وأربعة بيوت هجرها أصحابها، كما كانت هناك خمس قرى صغيرة خاوية على عروشها. وكانت الأرض تعانى بشدة من نقص الأيدى العاملة(٤٧). وحتى عندما شرع التاج الإسبانى فى التصرف فى الأراضى الخالية التى تركها المسلمون المجبرون على الرحيل، فقد أدى هذا إلى أزمات. ففى أراجون وبلنسية آلت الأراضى التى لم يستردها المقطعون إلى التاج، وفى قشتالة حصل التاج على أراضى المطرودين وقاسمهم نصف ثروتهم. وفى أول تشرين الأول أكتوبر سنة ١٦١٠م قرر مجلس المالية Council of finance الملحق بالعرش أن ممتلكات المسلمين الإسبان فى أوكانيا Ocana ومدريد قد بيعت فى غالبها، ودفع فيها ٧٥ مليون مارافيد(٤٨) وهو ما يساوى ٢٠٠,٠٠٠ دوكات (٤٩، ٥٠). ورغم أيلولة كثير من الممتلكات للتاج إلا أنها لم تدخل الخزانة العامة، وإنما وزعت على المحاسيب. ففى خطابات أرسلها السير فرنسيس كوتنجتون Francis Cottington السفير البريطانى فى مدريد إلى لورد سالسبورى، فى ٤ آذار (مارس) وفى ١٦ آيار (مايو) سنة ١٦١٠م ذكر أن الملك لم يستخدم العائد فى مصالح الدولة الداخلية، وإنما قسم هذه العوائد على محاسيبه، فقد حصل ليرما Lerma على ٢٥٠,٠٠٠ دوكا، وابن ليرما على ١٠٠,٠٠٠ وابنة ليرما على ٥٠,٠٠٠، ودوق Ucedo على ١٠٠,٠٠٠(٥١) وفى تقرير مؤرخ فى ٧ كانون الثانى يناير سنة ١٦١٣م أوضح أن ما آلت ملكيته للدولة من أملاك المسلمين المطرودين بلغ ٤٧١,٣٥٥ ليبرا و ٥ صولد، استخدم منها ٤٩,١٨٨ ليبرا فى الأمور والرواتب المتعلقة بمحاكم التفتيش، ٨٤,٩٤٩ ليبرا للسكان الجدد فى شكل قروض يتحتم دفع فوائدها، وتم إنفاق مبالغ أخرى لإعادة تعمير بعض القرى(٥٢).

وثمة منهج بحثى آخر يمكن أن نسلكه لمعرفة ما حاق بالاقتصاد الإسبانى من انهيار فى الفترة موضوع الدراسة، وهو تتبع نوع من أنواع التجارة الإسبانية

كمثال، ولتكن هذه التجارة هى تجارة الصوف، ففى بحث وثائقى معتمد على جداول الضرائب الرسمية المفروضة على تصدير الصوف الإسبانى، قام بها كارلا فيليبس Carla Rahn Phillips يذكر الكاتب أن الأرقام تشير إلى أن الصادرات من الصوف الإسبانى قد شهدت انهيارا منذ ١٥٥٠م وطوال قرن كامل(٥٣) ويلاحظ أن سنة ١٥٥٠م هى الحد الزمنى الذى بدأ فيه المؤلف بحثه لاعتبارات عملية، وهى توفر الإحصاءات بالنسبة له، فليس معنى هذا أن تجارة الصوف الإسبانية كانت مزدهرة منذ مطلع القرن، وإنما أورد المؤلف فترة الانهيار تلك، توطئة للقول بأنها عادت فازدهرت ازدهارا نسبيا بعد سنة ١٦٥٠م(٥٤) ويعلل الكاتب هذا الانهيار بالظروف السياسية والاقتصادية لإسبانيا، كما يبين أن الصادرات الإسبانية من الصوف كانت لفترة طويل تتخذ طريقها إلى جنوه بالذات(٥٥). وإذا علمنا أن الصوف كان هو مادة التبادل الخارجى الرئيسية فى تجارة إسبانيا(٥٦) أدركنا مدى ما حاق باقتصاد إسبانيا من انهيار.

ولا يمكن تفسير هذا الانهيار الاقتصادى الذى حاق بإسبانيا بمجرد خروج المسلمين رغم أنهم كانوا عناصر منتجة ومدرية، وإنما كانت هناك عوامل كثيرة متشابكة تشابكا معقدا، كتورط إسبانيا فى حروب الصراع الدينى، والحروب الإيطالية، وحروب الأراضى المنخفضة، إلا أن هذه العناصر جميعا لا تدخل فى نطاق بحثنا هذا، الذى لا يتناول إلا تأثيرالمسلمين - وهو تأثير هام وخطير، بل هو المؤثر الأول - وهذا التأثير الإسلامى ليس قصرا على المسلمين الإسبان، وإنما هناك دور مسلمى شمال إفريقيا ودور الدولة العثمانية. وحتى هذا التحفظ لا يعنى التقليل من دور إخراج المسلمين على انهيار الاقتصاد الإسبانى، لذا كان من الضرورى إفراد فقرة فى هذا البحث لمناقشة بعض الآراء المتعلقة بعددهم.

إن المصادر تختلف اختلافا شديدا فى عدد المطرودين من إسبانيا، فبينما نجد أن جودالاخارا Guadalajara يذكر أنهم حوالى ٦٠٠,٠٠٠ ثم عاد فذكر أنهم

٤٠٠,٠٠٠ بالإضافة للمهاجرين اختيارا، إلا أن نافاريت Navarrette يقدرهم بحوالى ٣,٠٠٠,٠٠٠ مسلم، غير اليهود، طردوا من إسبانيا على فترات مختلفة، وقد اعتمد فى هذا على قونزلايز دافيلا Gonzalez Davila المورخ الرسمى لفيليب الثالث وفيليب الرابع. أما فون دير هامر Von der Hammer فيختصر العدد إلى ٣١٠,٠٠٠ غير الذين رحلوا بالسفن، بينما يرفع ألفونسو سانشيز Al-fonso Sanchez العدد إلى ٩٠٠,٠٠٠، أما دى لافونتى De la Fuente فيجعلهم ١٢٠,٠٠٠، أما دافيلا كولادو Davila Collado فيقول إنه بعد مقارنة الإحصاءات الرسمية يميل إلى أن عددهم ٥٠٠,٠٠٠ ويميل لى Lea إلى هذا الرأى[٥٧]. ولا يدخل فى هذه التقديرات الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم[٥٨] ويرجع هذا الاختلاف فى التقديرات لأسباب عديدة فقد سلك المسلمون الخارجون من إسبانيا طرقا عديدة؛ فقد خرج بعضهم عن طريق فرنسا برا[٥٩]، وخرج بعضهم بالسفن من سواحل إسبانيا الشرقية، وآخرون خرجوا عن طريق سواحلها الجنوبية[٦٠]. كما أن تباعد الفترات الزمنية التى خرج بها المسلمون تجعل من الصعب تقديم إحصاء دقيق عنهم، كما أن الذين بخسوا المسلمين عددهم كان يكمن خلف تفكيرهم عصبية دينية تهدف لحرمان المسلمين الإسبان من حقوقهم الوطنية التاريخية. كما أن الأعداد القليلة نسبيا فيما سبق أن أوردناه من تقديرات كانت خاصة بفترة زمنية دون غيرها أو بمنطقة دون أخرى، رغم عدم النص على ذلك، وربما كان رقم الملايين الثلاثة رغم تواضعه هو أقرب الأرقام للصدق خاصة وهو تقدير مؤرخ رسمى لصيق بالبلاط. كما أن المسلمين الذين خرجوا عن طريق فرنسا بالذات لم يحظوا بالدراسة الكافية، إذ يذكر لى Lea أن عددا كبيرا يتراوح ما بين ٢٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قد عبروا الأراجون إلى نافار Navarre فى مطلع القرن السابع عشر وعبروا الجبال إلى فرنسا. وقد قدم لنا الكتاب الإسبان صورا عن معاناتهم، خاصة وأن السلطات الفرنسية لم تسمح لهم بالعبور فى بداية الأمر، ولكنها عادت فسمحت لهم مقابل

دفع دوكية لكل عابر، وقد اشترى هؤلاء العابرون تراخيص لحمل السلاح، ولكن بعد إنفاق نقودهم لشراء هذه التراخيص تم سلب الأسلحة منهم سواء على الجانب الإسبانى أو الجانب الفرنسى. وفى فرنسا كان ينظر إليهم كسكان غير مرغوب فيهم. وفى إحدى رسائل هنرى الرابع يتضح أنه سمح لهؤلاء المسلمين الذين تحولوا للكاثوليكية (أو تظاهروا باعتناقها) بالإقامة فى المناطق الواقعة خلف الجارون The Garonne ودوردونى Dordogne أما الراغبون فى الارتحال إلى شمال إفريقيا فلهم الحرية فى ذلك(٦١)

وفى أيار مايو سنة ١٦٠٩م أرسل السلطان العثمانى، إسبانيا مسلما هو الحاج إبراهيم كمبعوث شخصى لهنرى الرابع ليكون، أى الحاج إبراهيم، وكيلا دائما للسلطان فى مرسيليا لتسهيل مرور المهاجرين المسلمين، وكانت سلطات إسطنبول تولى هذا الموضوع عناية فائقة، وهذا ما تدل عليه مراسلات بهذاالشأن صادرة من الباب العالى إلى السلطات الفرنسية مؤرخة فى ١٩ أيلول (سبتمبر) و ٢٧ تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٦٠٩م(٦٢). وليس أدل على أهمية العامل السكانى فى تخريب اقتصاد إسبانيا من أن المناطق الزراعية التى شغرت بطرد المسلمين كان يجرى تعميرها على حساب أراضى أخرى لمجرد المظهر الكاذب لإقناع النفس وهما، بأن المسلمين لم يتركوا فراغا، ففى أوائل القرن السابع عشر تم إحلال ٢٢,٠٠٠ الف مسيحى من بلنسية فى الأراضى التى كان يشغلها المسلمون المطرودون من بلنسية نفسها(٦٣). وقد أدرك البعض خطورة ذلك، ففى سنة ١٦٠٩م، أى فى ذروة الطرد النهائى للمسلمين الإسبان. فقد أعلن دوق ليرما احتجاجه على طرد المسلمين بتخليه عن المسيحية، وإن كان هذا الإعلان مجرد تهديد وليس ارتدادًا حقيقيا عنها. كما أعلن البعض احتجاجهم على التنصير الإجبارى للمسلمين، وحتى من تنصر من المسلمين ظلت نصرانيته موضع شك، كما ظلوا موضع مراقبة دقيقة من السلطات

الكنسية. وقد ذكر كامن Kamen أنه كان هناك مسلمون سريون، أى يتظاهرون مجرد تظاهر بالمسيحية، حتى القرن الثامن عشر، وضبطت حالات واضحة نالت عقوبات رادعة سنة ١٧٢٨، وكانت هذه الحالات موجودة فى كل إسبانيا، ولكنها كانت أكثر ما تكون وضوحًا فى غرناطة، وقد ذكر كامن هذه الحقائق اعتمادا على وثائق سرية اطلع عليها فى الأرشيف القومى التاريخى فى مدريد Archivo Historico Nacional وهى وثائق تحمل الأرقام (٥٨ ـ ٤٧٥٥ . Irq)(٦٤)

وزاد من خطورة خروج المسلمين، على الاقتصاد الإسبانى، أن الإسبان لأسباب كثيرة، بعضها غير مفهوم، كانوا يعانون من ارتفاع نسبة الوفيات بشكل صارخ، كما كانوا يعانون من نقص فى المواليد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد مات بالطاعون فى الفترة من ١٥٩٦ إلى ١٦٠٢م أكثر من نصف مليون إسبانى، وفقا لتقديرات الأرشيفات الإسبانية التى رجع إليها كامن فى كتابه الوثائقى. وفى الفترة من ١٦٤٧ إلى ١٦٥٢ مات بالطاعون فى أراجون وقشتالة وحدها أكثر من نصف مليون إسبانى وفقا لتقديرات نفس المصادر الأرشيفية(٦٥).

وبالإضافة لهذا فقد لاحظ المراقبون أن الأسرة الإسبانية قليلة العدد، ويقصدون بذلك أن القدرة على الإنجاب قليلة، ففى النصف الأول من القرن السابع عشر ذكر الكاتب برتوت Bertaut معلقا «أن الأطفال ليسوا كثيرين هنا» وظل هذا ملحوظًا حتى بعد منتصف القرن السابع عشر، فقد ذكرت لادى آنى فانشو Lady Anne Fanshaw سنة ١٦٦٥ أن الإسبان «نادرا ما يكون لديهم أطفال كثيرون». ورغم عدم توفر الإحصاءات السكانية فى القرن السادس عشر بنفس القدر الذى توفرت لدينا عن القرن السابع عشر، إلا أن الباحثين الإسبان لاحظوا من خلال المتوافر من الأرقام ومن خلال بعض الشواهد أن الإسبان كانوا يعانون من انخفاض نسبة المواليد فى القرن السادس عشر أيضا، كما

لاحظوا أن ٤٧٪ من حالات الزواج كانت تنقطع بموت أحد الطرفين قبل اكتمال الأسرة[٦٦]. كما أنهم لاحظوا أن الطفل الأول عادة ما يولد بعد عشرين شهرا من الزواج، وهو أمر فيما يقول كامن. مألوف فى أوروبا الكاثوليكية[٦٧].

ومن الأمور الغريبة إن الباحثين الغربيين كانوا يؤكدون على ارتفاع نسبة المواليد بين المسلمين الإسبان لدرجة أخافتهم وجعلت بعض الإسبان المتعصبين يعتقدون أن المسلمين لو استمروا فى تزايدهم المرتفع، نتيجة ارتفاع نسبة مواليدهم، فإنه من المحتمل أن يغمروا إيبيريا كلها[٦٨].

ورغم هذه الظروف الإسبانية، التى كانت توضح أهمية المسلمين الإسبان للأرض والمصنع وحركة العمران، إلا أن الروح الصليبية كانت طاغية عمياء لدرجة أنه كان هناك مجلس خاص يسمى بالمجلس الصليبى The Council of Crusade مهمته متابعة حرب البربر Moors وفرض الضرائب اللازمة لذلك، وتلقى التمويل من البابا، وقد ظلت سلطة هذا المجلس قائمة حتى نهاية القرن السابع عشر، تساهم فى إصدار التشريعات المدمرة المخربة، رغم كل محاولات الإصلاح[٦٩].

الأثر العثمانى، وجهاد شعوب البحر المتوسط الإسلامية

يرى معظم الكتاب الغربيين أن العثمانيين مسئولون عن التوجه الأوروبى (البرتغالى الإسبانى) نحو الطرق الغربية، بسبب تحكم العثمانيين فى تدفق التجارة الشرقية، وبخاصة تجارة البهار، التى كانت ترد لأوروبا من موانئ الشرق الأدنى، وقد بدأ هذا التوجه فى القرن الخامس عشر باكتشاف سواحل أفريقيا المطلة على الأطلنطى، واندفاع البرتغاليين إلى الهند وجزر الشرق الأقصى، والأستعمار الإسبانى الجديد[٧٠].

ولكن كولز، وهو باحث اختصاصى فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، يقول ما ترجمته الدقيقة: «إذا ما وضعنا فى اعتبارنا التتابع الزمنى وحده -Chron

ological grounds فإن ما ذكر آنفاً لا يعد تفسيرا مقنعا. فقد أبحر بحارة هنرى الملاح قاصدين الدوران حول إفريقيا حتى قبل أن يستولى العثمانيون على القسطنطينية. كما أن فاسكو داجاما قد وصل إلى ساحل المالابار Malabar فى الهند، وكذلك قام ألفونسو البوكرك Alvonso de Albuquerque بنشر شبكة من المحطات التجارية المحصنة عبر الشرق الأقصى والمحيط الهندى، قبل أن يقوم سليم الأول بفتح المراكز التجارية فى سوريا ومصر»(٧١)، ثم يقول: «وبناء على ذلك، فإن المبادرات البرتغالية ثم الإسبانية لكشف الطرق الغربية، بدلا من أن تكون نتيجة لتدخل الأتراك(٧٢) فى تجارة البهار، فإن نقيض ذلك هو الذى يقرب للحقيقة»(٧٣). لقد كانت أوروبا هى المبادرة بالعدوان، كما يؤكد ذلك كولز، فمنذ سنة ١٥٠٥م حتى وفاة الملك عمانوئيل الأول Kind Manuel فى سنة ١٥٢١م نجد البرتغاليين انطلاقا من قواعدهم التى حصلوا عليها حديثا فى شرق إفريقيا وآسيا يعملون وفق سياسة مدروسة حققت فى المدى القريب نجاحا باهرا لاستئصال كل المصالح الإسلامية فى تجارة البهار. ولقد كتب أحد البرتغاليين المعاصرين لهذه الفترة جذلا مهللا: «لقد حوصر محمد، ولا يمكنه أن يتقدم أو ينساب أكثر مما فعل.. والحقيقة أن محمدا(٧٤) سيحطم ويحبطم.. ولا خيار له سوى ذلك، فأكثر ما يطمع فيه هو أن يكون له مجرد وجود»(٧٥)

ويمكن تفسير حملات العثمانيين وسياستهم التجارية بعد سنة ١٥١٥م كرد فعل فعال لهذه الأزمة، سيطرة البرتغاليين على تجارة البهار وتهديد المصالح الإسلامية عامة. فقد أتاح غزو سوريا ومصر ١٥١٦ - ١٥١٧م للعثمانيين السيطرة على القاهرة والإسكندرية وبيروت، وهى الموانئ الرئيسية فى الشرق الأدنى التى تمر تجارة التوابل عبرها. كما أن استيلاء العثمانيين على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢م كان ضروريا لتحقيق الأمن للممرات البحرية بين هذه المراكز والعاصمة العثمانية. وقد بذلت الحكومة العثمانية خاصة فى الفترة من

١٥٢٠ - ١٥٣٠م جهودا كثيفة لجعل اسطنبول مركزا لتجارة البهار تحت إشراف حكومى، وأن يتم التصدير إلى أوروبا عبر نهر الدانوب، بحيث يكون النقل عبر المتوسط إلى المدن الإيطالية أقل قيمة. وهذه السياسة أضرت بقدر بالغ بالمحتكرين التقليديين لهذه التجارة، وهم تجار مصر وسوريا والبندقية. وعلى هذا فإن حروب سليمان القانونى، فيما يرى كولز، فى البلقان ليس لها تفسير منطقى واحد، وهو أنها محاولات للسيطرة الكاملة على طرق التجارة المؤدية إلى وسط أوروبا عبر نهر الدانوب، وعلى هذا فإن الفرضية القائلة بأن التوسع العثمانى هو الذى أجبر الأيبيريين على الحركة الكشفية، فرضية غير صحيحة ولا تصمد أمام نقاش(٧٦).

فالروح الصليبية وليس المصالح الحقيقية هى التى كانت تحرك القوى الإيبيرية التى يهمنا منها هنا إسبانيا باعتبارها موضوعا لهذا البحث. ففكرة استرداد الأراضى التى استولى عليها الكفرة (يقصدون المسلمين) كانت فكرة يشعل فتيلها الكنسيون والمتعصبون. وهذه الروح هى التى أدت إلى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، أو ماتسميه بعض المراجع الأوروبية باسم «المملكة المغربية»، وبين سنة ١٥٠٢ و ١٥١١م كانت التجريدات العسكرية يجرى تسييرها عبر المتوسط إلى مراكش (المغرب الأقصى). كما كانت المواجهة العسكرية البحرية مع الإمبراطورية العثمانية فى القرن السادس عشر، من وجهة النظر الإسبانية، استمرارًا منطقيا للنضال الذى بدأ منذ فترة طويلة، ولم يكن بحال أمرًا طارئا يمكن التخلى عنه. ومما زاد هذه الروح الصليبية سُعارا، أن إسبانيا كانت تضم بين جنباتها عددا لا يستهان به من المسلمين، وكانت الحكومة الإسبانية تخشى أن يؤدى التوسع العثمانى إلى تشجيع المسلمين فى داخلها على الثورة، وتشجيع الذين تظاهروا باعتناق المسيحية على العودة جهارا لدينهم، لهذا كان إسراع إسبانيا بخوض غمار الحرب ضد الدولة العثمانية وسكان شمال إفريقيا، راجعا فى بعض جوانبه لهذا السبب الداخلى(٧٧).

وقد حمل هذا الجهد الحربى المجتمع الإسبانى والاقتصاد الإسبانى إجهادات وتوترات متعددة. فحملات شارل الخامس ضد الجزائر سنة ١٥٤١م، وحملات جيان أندريا دوريا Gian- Andrea Doria ضد جزيرة جربة Djerba سنة ١٥٦٠م، قد قذفت إلى حيث لا عودة بآلاف الجند والبحارة وبسفن ضخمة مكلفة فى سبيل هدف غير واضح. ولمواجهة هذه التكاليف زيدت الضرائب على الطبقات العاملة فى إسبانيا، بينما ظلت طبقة النبلاء مستثناة من هذه الضرائب بدرجة كبيرة. ولهذا أصبح الفقر متوطنا فى الطبقات الدنيا من المجتمع الإسبانى، وعانى الاقتصاد من تخريب ودمار دائمين. فتدفق كنوز أمريكا فى القرن السادس عشر على إسبانيا كان ينبغى أن يكون سببا فى إحداث تنمية اقتصادية مزدهرة ومضطردة. إلا أن وطأة الضرائب التى فرضت لمواجهة تكاليف الحروب قد حرمت التجار والمنتجين من العملاء الذين أضحت جيوبهم خاوية، فأنى لهم بالقدرة على الشراء. ولم تكن إسبانيا كما كان يبدو أكثر القوى الأوروبية ثراء إلا من الناحية النظرية فقط، فواقع الأمر، فيما يقول كولز، أنه «كان ثراء عقيما غير مجد، إذ لم يكن للطبقات المنتجة منه نصيب، وإنما كان النصيب للطبقات غير المنتجة. ولقد انعكست تعاسة إسبانيا وبؤسها على توابعها (مستعمراتها) فى البحر المتوسط، فكثير من توابعها فى المتوسط كانت تقف فى خط المواجهة الأول فى هذه الحرب البحرية فى مواجهة العثمانيين، بينما حملوا من الضرائب قدرًا مساويًا لما كان مفروضًا على أهل إسبانيا ذاتها(٧٨) رغم بعد أهل إسبانيا عن أضرار الحرب البحرية.

ففى صقلية وجدنا أن آخر نائبين للملك وهما فرانتى جونزاجا Ferrante Gonzaga وخوان دى فيجا Juan de Vega قد فرضا ضرائب محلية باهظة للإنفاق على الإنشاءات الدفاعية الساحلية ولإنشاء عشر سفن شراعية كبيرة ولدفع رواتب المشاة الإسبان وتدريب المتطوعين المحليين، لصد الغارات

الجزائرية العثمانية، وكان المزيد من الضرائب يفرض كلما تضاعف نجاح العثمانيين، فقد كانت الضرائب المفروضة على أهل جزر البحر المتوسط تتناسب تناسبًا طرديًا مع الانتصارات العثمانية، فقد تحملت صقلية ضرائب غير عادية عندما ساد توقع هجوم عثمانى فى أعقاب الفشل المسيحى الممثل فى هزيمة الحملة الإسبانية على جزيرة جربة سنة ١٥٦٠م(٧٩). وعندما كان الأسطول الإسبانى يحتشد فى مسينا Messina لتقديم التموينات والعون العسكرى لمالطة التى كان العثمانيون يحاصرونها سنة ١٦٥٦ كانت الضرائب المفروضة على السكان هى الحل الوحيد لدعم هذا المشروع. وفى سنة ١٥٧٣م احتج الرئيس الصقلى ترانوفا Terranova على فيليب الثانى ذاكرًا أن جباية الضرائب قد بلغت منتهاها، وعبَّر عن مخاوفه إذا استمرت الضرائب بنفس معدلها أن يتزلزل أركان الحكم الإسبانى فى الجزيرة(٨٠). إلا أن الموقف بدأ يتحسن نسبيا منذ سنة ١٥٧٥م، والتفسير الوحيد لذاك فيما يرى كولز هو تقلص حجم العمليات البحرية بحدة فى الأعوام التى تلت معركة ليبانتو(٨١). إلا أن هذا الوضع لم يستمر خاصة وأن السلطان العثمانى كان قد صرح بعد هذه المعركة قائلا: «إن الكفرة لم يزيدوا على أن نتفوا بضع شعرات من لحيتى ولكنها ستنمو من جديد»(٨٢).

ولقد ارتبطت حركات المسلمين الإسبان داخل إيبيريا بالانتصارات الإسلامية خارج إيبيريا، وقد كان المسلمون الإسبان يمعنون فى ثورتهم كلما وصلتهم أخبار الأعمال البطولية التى كان يقوم بها مجاهدو البحر، فقد حدث اضطراب شديد «قام به المسلمون الإسبان فى غرناطة أثناء حصار مالطة سنة ١٥٦٥م وكان المسلمون الإسبان المطرودون يمثلون عنصرًا بارزًا فى القوات العثمانية المحاصرة لمالطة» وقد أدى هذا إلى شك عميق فى أجهزة الحكومة الإسبانية، وهذا بدوره أدى إلى أساليب القمع والوحشية البالغة ضد المسلمين الإسبان،

وهذا أدى بدوره إلى انفجار ثورة إسلامية عارمة سنة ١٥٦٨. وبحلول عام ١٥٦٩ بلغ عدد المتمردين ١٥١,٠٠٠، وتزامنت هذه الاضطرابات مع فترة كانت الحكومة الإسبانية تعانى فيها من مصاعب جمة، فقد كانت القوات العسكرية الرئيسية غائبة عن إسبانيا بقيادة دوق ألبا Duke of Alba فى الأراضى المنخفضة ولم تكن القوات البحرية المكرسة لخفر السواحل قادرة على قمع الثورة أو منع الإمدادات القادمة من الخارج، ولم تنته ثورة المسلمين إلا بعد أن خاض ضدهم المسيحيون الكنسيون حربًا شرسة صليبية بربرية لا هوادة فيها فى خريف سنة ١٥٧٠م. ويهمنا فى هذا الصدد ما اتخذته الحكومة الإسبانية من إجراءات بعد معركة ١٥٧٠م التى أشرنا إليها، إذ تم طرد عدد كبير إلى خارج إسبانيا، كما تم نقل عدد كبير منهم من غرناطة إلى مناطق أخرى كقشتالة القديمة واستريمودورا Estremodura وجاليشيا Galicia وقد أدى هذا إلى تصدير مشاكل المسلمين لمناطق لم تكن قد عانت منها من قبل. وكان الهدف من هذا الإجراء هو خلخلة الكثافة السكانية الإسلامية فى بعض المناطق، كما عملت السلطات الإسبانية على فصل مسلميها عن حلفائهم فى شمال إفريقيا بإبعادهم عن المناطق الساحلية وتم هذا المنع وطبق فعلا فى منطقة الأندلس (مقاطعة أندوليسيا) سنة ١٥٧٩م، وطبق المنع فى بلنسية سنة ١٥٨٦م. وكتب مسئول حكومى سنة ١٥٨٨م فى تقرير له أنه «يجب تصنيف كل من المسلمين الإسبان Moriscos كأعداء لنا» يقصد سواء ادعوا اعتناق المسيحية أم لا. وقد أدت هذه النظرة بالإضافة إلى الضغط الواقع على المسلمين إلى انخراطهم فى سلك المقاومة السرية والأعمال الانتحارية، وهى ما تسميه المراجع الغربية «بأعمال اللصوصية والجريمة كأسلوب حياة»، وظل الأمر كذلك حتى أعلنت الحكومة إفلاسها التام، فتم إخراج المسلمين نهائيا كسياسة لا رجعة فيها، أو بتعبير أدق إخراجهم كعنصر، سواء اعتنقوا المسيحية أم تظاهروا باعتناقها، أم

كانوا مسلمين ظاهرًا وباطنًا(٨٣) مع ما تبع هذا من نتائج ألمحنا لبعضها فى الصفحات السابقة.

أثر العثمانيين وحركة الجهاد البحرى فى توجه أهل جنوه إلى إيبيريا، ودور الجنويين فى تخريب الاقتصاد الإسبانى

اتجه أهل جنوه فى بداية الأمر للبرتغال، باحثين عن ميادين للعمل والاستثمار غير تلك التى فقدوها فى الشرق. فكلما انتعشت البرتغال وجدنا بيوت أعمال الارستقراطية الجنوية تنتشر فى البرتغال، كمؤسسة دوريا Doria وسنتريون Centurione وكاتانيو Cattaneo وسلفاجو Salvago، وسبينولا Spinola ثم ما لبثوا أن انتشروا فى إسبانيا، فأسهموا فى خرابها منتهزين فرصة انشغال إسبانيا فى حروب صليبية لا معنى لها. ويقول كولز ما ترجمته «ولقد أظهر البحث فى دور الوثائق فى إشبيلية كيف أن أهل جنوه كانوا هم الوسطاء الرئيسيين فى التجارة بين إسبانيا والعالم الجديد خلال الفترة من ١٥٠٢ إلى ١٥٢٠م باعتبارهم حملة الأسهم غير المعلنين (السريين) فى بيوت التجارة الإسبانية، كما كانوا هم أصحاب وكالات التأمين البحرى والمشتغلين بالإقراض، وكانت ملحقات التاج الإسبانى فى البحر المتوسط كسردينيا والصقليتين قد أصبحت قرص عسل سائغ فى أفواه الجنويين بفضل انتشار مستوطناتهم التجارية هناك فى أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر»(٨٤). وفى أسبانيا ذاتها اشتكى أعضاء برلمان قشتالة بمجلسيه سنة ١٥٢٨م من أن تجارة الصوف والحرير والصلب والصابون أصبحت حكرًا على أهل جنوه. وزاد التغلغل الاقتصادى لأهل جنوه فى إسبانيا عندما انفصل الأدميرال الجنوى دوريا Andrea Dorea عن خدمة فرنسا، وانضم إلى خدمة التاج الإسبانى، بينما كان يحكم فى نفس الوقت قبضته على موطنه جمهورية جنوه. وقد كان مركز الارستقراطية الجنوية قد تدعم نتيجة استثماراتهم فى إسبانيا. وقد كانت الأرستقراطية الجنوية هى المستفيد الأول من تدفق المعادن النفيسة خاصة

الذهب على إسبانيا. ففى سنة ١٥٥٨م تقدمت شركة جريمادى الجنوية Gri-madi بمليون سكودى ذهبى Gold Scudi كقرض واحد للتاج الإسبانى. وقروض كهذه كانت تصحب بنسبة فائدة عالية تتراوح ما بين ١٠٪ و ١٤٪، وكانت تحسب كقروض طويلة الأجل، وكان الدائنون يستولون على أقاليم ومناطق بأكملها ويحصلون على حجج ملكية Titles واحتكارات تجارية وصناعية.. إذا تخلف التاج عن السداد. وفى مواجهة تلك القروض والصفقات كرر البرلمان الإسبانى سنة ١٥٤٢م وسنة ١٥٩٢م اعتراضه الذى تقدم به سنة ١٥٢٨م، احتجاجا على تطفل (الجنويين على الاقتصاد الإسبانى) ووفقا لحساب جرى سنة١٥٩٥م دفعت إسبانيا ما يساوى ٢٤ مليون دوكية مباشرة إلى الجنويين لإعادة دفع الديون وهذا المبلغ يساوى قيمة المعادن النفيسة الإسبانية خلال السنوات الست والأربعين السابقة على عام ١٥٩٥م(٨٥)

ولقد أدى خلق دوريا لعلاقات قوية ورسمية مع إسبانيا، إلى جانب الحاجة الإسبانية الماسة للسفن الحربية التى تستطيع تحمل الدفاع البحرى ضد العثمانيين وسكان الشمال الإفريقى.. كل هذا قد فتح فرصًا جيدة أمام أهل جنوة فى مجال التعاقدات البحرية. فأسطول جنوه بقيادة دوريا كان هو ضمان شارل الخامس للسيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، كما كان هذا الأسطول يشكل خط الدفاع الأول عن العالم المسيحى ضد (الهجوم الإسلامى) وكانت نواة هذا الأسطول مكونة من سفن يمتلكها دوريا شخصيا وكان يقوم بتأجيرها لإسبانيا. إذن فقد كان دوريا متعاقدا بحريا جاهزا وهاما إذ كان مالكا لاثنتى عشرة سفينة عندما التحق بخدمة شارل الخامس سنة ١٥٢٨م. وفى سنة ١٥٥٢م كان دوريا يمتلك ٣٩ سفينة Galleys. ولقد كانت هذه السفن التى يمتلكها دوريا هى التى «تحكم إيقاع ونبض الجهود الحربية الإسبانية فى البحر المتوسط ضد العثمانيين فى السنوات الوسطى فى القرن السادس عشر(٨٦). إلى هذا

الحد كانت إسبانيا عملاقا فخاريا. وكان دوريا مسؤولا عن تنظيم رحلات الزيارات الضرورية التى يقوم بها شارل الخامس خارج إسبانيا. وثمة عدد آخر من النبلاء الليجوريين (الجنويين) قد سلكوا مسلك دوريا فى مجال التعاقدات البحرية، خاصة أسر نيجرون Negrone وامبريال Imperiale، وجريمالدى Grimaldi، واوسوديمارى Usodimare، وسيجولا Cigola(٨٧)

وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا هذه المعلومات الهامة عن التغلغل المالى والاقتصادى للجنويين فى إسبانيا، اتضح لنا كما يقول كولز، إن الجنويين قد لعبوا دورهم الجديد من خلال خوف الإسبان من الخطر العثمانى. وقام الجنويون بدورهم الجديد هذا بحثا عن ميادين جديدة بعد أن فقدوا مستعمراتهم التجارية فى بحر إيجة والبحر الأسود. وأخيرا فقد كانت هجمات سكان المغرب والتى كان يقودها فى الأربعينيات من القرن السادس عشر برباروسا ذو البأس الشديد، أحد العوامل التى ساعدت الجنويين على إحكام قبضتهم على الاقتصاد الإسبانى. «لقد كانت كميات الذهب الأمريكى الإسبانية والتى كانت تعتبر المورد الرئيسى والضمان لعظمة إسبانيا تشحن عادة بعد عبورها الأطلنطى من إشبيلية إلى الأراضى المنخفضة. ومن أنتورب Antwerp تدور عبر أوروبا الشمالية والغربية والوسطى ليتم المقايضة عليها بالبضائع والخدمات التى تدعم نظام الهبسبرج الإسبانى. ومنذ أوائل السبعينيات من القرن السادس عشر أصبح ثمة طريق مغاير يزداد استخدامه، فالمعادن الأمريكية النفيسة أصبحت تنقل الآن عبر البحر المتوسط فى سفن برشلونة إلى جنوه وسرعان ما حلت المدينة الليجورية (جنوه) محل أنتورب كمركز توزيع ضخم. وعلى هذا أصبحت جنوه هى العاصمة المالية لأوروبا.. وكان استخدام هذا الطريق مرتبطا بالحروب البحرية الكبرى فى البحر المتوسط.، لقد اتجهت معظم موارد الإمبراطورية الإسبانية ذات القيمة إلى هذه الجبهة المكلفة. وقد

استمر هذا الوضع الاقتصادى لجنوه حتى بدأ فيض سبائك الذهب الإسبانى الأمريكى يميل للنضوب فى العقد الثالث من القرن السابع عشر»(٨٨).

خاتمة

لقد حاولنا فى الصفحات السابقة، الاقتصار على الأثر الاقتصادى قدر الإمكان لكن حقيقة الأمر أن دراسة التاريخ الحضارى، دراسة متشابكة يتداخل بعضها مع البعض الآخر، فمما لا يبعد كثيرا عن الأثر الاقتصادى للمسلمين على إسبانيا فى الفترة موضوع الدراسة، أن التفات إسبانيا لحروب البحر المتوسط وصراعها مع العثمانيين وعدم اتباعها سياسة تسامح وحكمة مع المواطنين المسلمين، قد أدى إلى أن توحيد إسبانيا لم يكن إلا توحيدا شكليا. فقد كان مجرد زواج فرديناند وإيزابيلا، لا يعنى سوى البداية لتلتف سائر مناطق إسبانيا حول الملكية الوليدة لكن هذا لم يكن ليتم دون فترة طويلة من الجهود الإدارية الصبورة، إلا أن حروب البحر المتوسط الصليبية قد استنزفت الجهد والمال والطاقة والوقت اللازمين لإنجاز هذا المشروع، مما اضطر الحكومة إلى التنازل والتغاضى عن كثير من الأمور الداخلية، وانصرفت بذلك عن الاهتمام بالوحدة الحقيقية، «فبقيت الوحدة مجرد واجهة كاذبة»(٨٩).

وظل هذا الوضع مستمرًا أو مؤثرًا فى تاريخ إسبانيا حتى القرن الثامن عشر(٩٠)، فيذكر كولز أن موظفا إسبانيا كبيرًا كتب عن بلده قائلا: «إنه جسم مكون من أجسام أخرى أصغر. أجسام منفصلة يعادى بعضها بعضا، ويناقض بعضها رغبات البعض الآخر. وفى حالة حرب دائمة فإن كل ولاية، وكل مجموعة دينية، وكل أصحاب مهنة، ستكون منفصلة عن بقية الأمة، متقوقعة على نفسها.. إن إسبانيا الحديثة، يقصد فى القرن الثامن عشر، يمكن اعتبارها جسدًا هامدًا بلا طاقة.. إنها بمثابة كيان شاذ ضخم مكون من كيانات أصغر يواجه بعضها البعض الآخر نظرًا لأن المصلحة الخاصة لكل منها فى تناقض مع المصلحة العامة(٩١).

وإذا كان هذا هو وضع إسبانيا فى القرن الثامن عشر، فالذى لاشك فيه أنه نتيجة لأحداث قرون خلت(٩٢).

هوامش المبحث الثالث

(١) يذكر المؤرخ لى Lea أن طرد المسلمين من الأندلس لم يكن لتعصبهم ولا لامتصاصهم دماء الناس كما فعل اليهود وإنما كان نتيجة خطة منظمة لبث الأحقاد كانت تقودها كنيسة روما التى كانت تحرم وتجرم أى صداقات مع المسلمين، وكانت الكنيسة تخطط بانتظام لإبقاء العناصر متباعدة لا يختلط بعضها بالبعض الآخر، وفى القرن الثالث عشر تدخلت الكنيسة حتى فى المعاملات التجارية فلم تجز الاتجار مع المسلمين إلا بتصريح مسبق، وهذا القرار أصدره انوسنت الرابع، إلا أن الناس كانوا يتعاملون مع المسلمين سرًا مخالفين تعاليم الكنيسة، بل إن الحكام المحليين كانوا يفعلون ذلك. وفى مؤتمر عقد فى فينا ١٣١٢ تواصى المؤتمرون بمنع المسلمين فى أوروبا من أداء صلواتهم وطردهم ولكن الأمراء تجاهلوا ذلك. وبعد ذلك بقرن تقريبا أى فى ١٤٢٩ التمس مجمع تورتوسا Tortosa من ملك أراجون ومن كل النبلاء ملاحظة التشريع السالف ١٣١٢ إلا أن الأمراء لم يحركوا ساكنا، ولم يبدأ تطبيق إذلال المسلمين بشكل صارخ إلا على أيدى فرديناند وإيزابيلا ١٤٨٢. ومن الملاحظ أن الكراهية على المستوى الشعبى كانت موجهة أساسا لليهود، لهذا كانوا هم أول من خرج بعد سقوط غرناطة مباشرة. ومع كل هذه التشريعات فإن طرد المسلمين لم يتقرر نهائيا إلا فى القرن السابع عشر.

راجع تفاصيل ذلك فى :

Henry Charles Lea, The Moriscos of Spain: Their Conversion and Ex

pulsion.(Philadelphia: Lea Brothers, 1901) pp. 8 - 14.

وقد نشر Lea عددا كبيرا من الوثائق الإسبانية، وعرض محتواها بالإنجليزية، وفيما يلى بعضها.

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 1.
Archivo de Simancas, Inquisicion, Legajo Unico, Fol 4.

وقد نشر Lea النص الإسبانى كاملا وأعطاه عنوانا إنجليزيا هو:

Permission for the Moors of Portugal to pass through or settle in Castile.

وقدم مستخلصا لمحتويات الوثيقة بالإنجليزية فى ص ٢٣ من كتابه .

Archivo de Simancas, Patronato Real, Inquisicion, Legajo Unico, Fol. 26.

نشر لى النص الإسبانى للوثيقة كاملا، وعنوانها باللغة الإنجليزية كالتالى:

General Pardon of the new converts

وعرض بعض محتواها بالإنجليزية فى ص٣٧ من كتابه

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 926, Fol. 76.

نشر لى النص الإسبانى كاملا، وأعطاها عنوانا إنجليزيا هو:

Ferdinand, S Reproof to Inquisitors

وقدم مقتطفات مترجمة للإنجليزية منها فى ص٥٩ من كتابه.

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4, Fol 97

نشر لى النص الإسبانى كاملا، ثم عنونه بالإنجليزية كالتالى:

Letter of Cardinal Manrique to Charles V concerning the coerced converts of Valencia

وعرض لمحتوى الوثيقة فى ص ٧٤ من كتابه

Informacio Super Conversione Saraceborum.

أعطى لى هذه الوثيقة عنوانا هو:

Commission from the Inquisitor General.

وذكر أن أصل الوثيقة فى حوزته الشخصية، ونشر نصها الإسبانى كاملا فى صص٤١١ - ٤١٢ من كتابه، وعرض لبعض محتوياتها بالإنجليزية فى ص ٧٥ من كتابه.

Archivo do Simancas, Patroncite Real, Inquisicion, Ligajo unico, Fol, 36,39.

وقد نشر لى الوثيقة كاملة بنصها الإسبانى، وجعل عنوانها بالإنجليزية كالتالى:

Complaints of the cortes of the Kingdoms of Aragon in 1537, concerning the treatment of the Moriscos, with replies of the Inquisitor General.

وقدم عرضا لبعض محتوياتها فى صفحتى ٩٨و ١٢٢ من كتابه

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libra 4, Fol 262.

وقد نشرها لى كاملة وأعطاها عنوانا إنجليزيا هو:

Delegation by Inquisitor General Valdes of Power to Hear confossians.

وقدم عرضا لبعض محتوياتها فى ص ١٢٠ من كتابه.

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro, 77, Fol 228.

نشرها لى كاملة بالإسبانية وجعل لها عنوانا إنجليزيا هو:

Cardinal Manrique's Instruction to Calcina and Haro

وعرض بعض الأفكار الواردة بها فى ص١٤٢ ص ١٨٥ فى كتابه.

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 926, Fol 71.

وعنوانها بالإنجليزية هو:

Brief of Clement v11, Februery 28, 1579

وعرض لى بعض افكارها فى كتابه السالف الذكر ص ١٧٠.

Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Valencia, Legajo 5, Fol 298.

وذكرلها لى عنوانها إنجليزيا بعد أن نشرها بالإسبانية:

Report of Inqüisition of Valencia on result of the edict of Grace of 1599.

وذكر مضمونها فى ص١٧٣ من كتابه.

Archivo de Simancas, Inqisicion, Libro 926, Fol 80.

نشرها كاملة وعنونها بالإنجليزية كالتالى:

Report of Inquisiton on the Moriscos of Granada, 1526 -1561

وعرض بعض أفكارها فى ص ٢١٥ من كتابه

Moorish Ballad of 1568, Prior to the rebillion of Granada.

قدم لى الترجمة الإنجليزية الكاملة لها فى ص ص ٤٣٤ - ٤٣٧

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 926, Fol 80.

وبعد نشرها بالإسبانية، قدم لى عنوانا إنجليزيًا هو:

Letter of Inquisitor General, Quirogo suggesting the Expultion of Moriscos.

وعرض لبعض محتواها فى ص ٤٣٨ من كتابه

Archivo de Simancas, Inquisicion, Sala 51, Legajo, 205, Fol 2.

وقد عنونها لى بالعنوان الإنجليزى التالى بعد نشرها بالإسبانية

Brief relation of the expultion fron Valencia.

وعرض لمحتواها فى ص ٣٢٠ من كتابه سالف الذكر

ومن المراجع الوثائقية الهامة بالنسبة لهذا البحث:

Henry Kamen, Spain in the Later 17th Century, 1665 - 1700 (London: Longman, 1980)

وهو كتاب هام ووثائقى، إذ اعتمد المؤلف على كل الأرشيفات (دور الوثائق) الإسبانية، وعدد من دور الوثائق الإنجليزية والفرنسية، وأشار إلى وثائقه بوضوح ودقة وقدم مقتطفات كافية منها، ورغم أنه يركز على نهاية القرن السابع عشر إلا أنه فى حالات كثيرة كان يُجذر الأحداث بالرجوع إلى حقب أسبق، لذا كان مفيدا لهذا البحث، وفيما يلى ثبت بأهم دور الوثائق التى رجع إليها:

Archivo dela Corona de Aragon
Archivo de la Diphtacion, Zaragoza

Archivo General de Las Indias, Savilla
Archivo General de Protocolos, Barcelona
Archivo General historico National, Madrid.
Archivo Municipal de Murcia
Arcivo Municipal de Sevilla
Archivo Municipal de Valencia

ومن أرشيفات باريس:

Menestere des affaires etrangeres Paris, (Section Correspondance Politique)
Archives Nationales, Paris
Depot General de la Cuerre

وفى بريطانيا:

National Library of Scottland (Astorga Collection)
Public Record Office.

(٢) H. C. Lea, op. cit., pp. 8-11

(٣) Ibid., p.11

(٤) رغم أن عددا كبيرا جداً من اليهود أعلنوا قبولهم للمسيحية وأصبح اسمهم المسيحيين الجدد، إلا أن الكراهية ضدهم ازدادت ازديادا كبيرا بسبب اشتغالهم بالربا وامتصاصهم دماء الشعب الإسبانى Ibid., pp. 12-14

(٥) Ibid., pp, 12-14

(٦) وقد نشر باحث عربى الترجمة الكاملة لمعاهدة تسليم غرناطة وملحقاتها عن القشتالية مباشرة. ويلاحظ أن هذه المعاهدة لم تنفذ مما يدل على أن الباحث يجب عليه التحرّز فى اعتماد الوثائق كمصدر وحيد للتاريخ، فقد لاقى الذين أقاموا عنتا شديدا.

محمد عبده، حتاملة التنصير القسرى لمسلمى الأندلس (عمان، ١٩٨٠) ص ص ١٩٠ - ١٩٥

محمد عبده حتاملة محنة مسلمى الأندلس عشية سقوط غرناطة (عمان، ١٩٧٧)

(٧) H. C. Lea, op, cit., p. 25

(٨) كان بعض هؤلاء تنقلهم سفن مجاهدى البحر (أو القراصنة كما تسميهم المراجع الغربية) وقد كان القرار بالطرد رغم اعتناقهم المسيحية أوَ تظاهرهم بذلك. وقد صدر القرار النهائى فى ٢٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٦٠٩. انظر أهم محتويات القرار فى: محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، (القاهرة، ط ٢، ١٩٥٨) ص ص ٢٧٩ - ٢٨٠، ٢٨٢. وحتى بعد صدور قرار الطرد النهائى نص قرار لاحق على استبقاء ٦٪ من المسلمين الإسبان ليعملوا فى معامل تكرير السكر وتنظيم الرى وصيانة المبانى وتدريب السكان الجدد. ولكن قرار المسلمين فى وقت لاحق هو أن ينصحوا إخوانهم الذين يريد المسيحيون استبقاءهم (الـ٦٪) بالرحيل أيضا.

(٩) لقد تخصص لى Lea فى التاريخ الإسبانى فى هذه الفترة وفى فترات أخرى، وكانت محاكم التفتيش والتاريخ الدينى لإسبانيا، وتاريخ الكنيسة خاصة، هى محور دراساته الهامة. وهى دعوة للاهتمام بهذا الكاتب ومن دراساته:

Ahistory of the Inquisition of the Middle Ages. 3 vols

Chapters from the religious History of Spain Connected with the Inquisiton.

Studies in the Church History

(١٠) H. Kamen, op. cit.

ومن المقالات الهامة التى رجعت إليها ما كتبه الباحث الاختصاصى فى التاريخ الاقتصادى:

Carla Rahn Phillips, The Spanish wool trade, 1500 - 1780. The Journal of Economic History, 1982. iv

والمقال وثائقى، وهو عرض من خلال الأوراق الحكومية وكشوف الحسابات المتعلقة بتجارة الصوف فى الفترة موضوع الدراسة فى:

Archivo General de Simancas.

وغالب إشاراته المرجعية إلى وثائق الأرشيف المذكور.

(١١) Archivo de Simancas, Inquisition, Libro 926, Fol 76.

وأهم الأفكار الواردة فى الوثيقة أن التحول للمسيحية لا يتم بالقوة لهذا فإن الذين تركوا دورهم خوفا من التعميد يجب إعادتهم مع الأمان الكامل.

راجع العنوان الإنجليزى المترجم لهذه الوثيقة فى: حاشية رقم (١)

وهذا يدل على تردد السلطات الإسبانية وإدراكها للأهمية الاقتصادية للمسلمين

الإسبان، مع عدم إغفال الرغبة فى إجبارهم على التحول للمسيحية بدليل ما جاء فى وثيقة أخرى صادرة من فرديناند سنة ١٥٠٠، ١٦ شباط (فبراير) بالعفو عن كل الجرائم التى ارتكبها من قبلوا التعميد.

انظر حاشية رقم (١) عن

Archivo Simacas, Patronoto Real, Inquisicion, Legajo unico, Fol. 26

(١٢) محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية (القاهرة، ط٢، ١٩٦١)، ص ١٦٠.

(١٣) انظر هذا البحث ص ١٦

(١٤) انظر هذا البحث ص ص ١٥ -١٧

(١٥) انظر هذا البحث ص ص ١٥ - ١٧

(١٦) Paul, Coles. The Ottoman Impact on Europe. (London, 1968)

(١٧) انظر هذا البحث ص ص ١٥ - ١٧

(١٨) انظر هذا البحث ص ص ١٥ - ١٧

(١٩) لجأ كثير من المسلمين الإسبان الخارجين اختيارا أو إجبارا إلى شمال إفريقيا وإلى العاصمة العثمانية، وكانوا عناصر فعالة فى حركة جهاد البحر المتوسط.

(٢٠) راجع تعليق السلطان على هزيمته فى ليبانتو فى ص ١٤ من هذا البحث

(٢١) P. Coles, op. cit., p. 130

(٢٢) Ibid. pp. 129 -130

(٢٣) يرى كولز أن سليمان القانونى (الفاخر) أسهم عن غير قصد فى إيجاد امبراطورية النمسا، أو ملك الهبسبرج الذى استمر حتى القرن العشرين، وذلك بدون قصد منه، فقد وجد هذا الكيان أساسا ـ فيما يرى كولز لصد التقدم العثمانى

Ibid., p. 123

كما أن الخطر العثمانى أو انشغال شارل الخامس فى حروبه الكثيرة ومشاكله المتعاظمة والصراع الدينى، كل هذا أدى إلى تدعيم سلطة أخيه الأصغر، فرديناند فى النمسا، وهذا أدى إلى توليه السلطة منفردًا بعد ذلك.

Ibid., p. 119

(٢٤) القرآن الكريم، آل عمران، ١٤٠

(٢٥) القرآن الكريم، النساء، ١٠٤

H. c. Lea, op. cit., p. 56 (٢٦)

Ibid., pp. 56 - 66 (٢٧)

(٢٨) كتب مانريك Manrique رئيس محكمة التفتيش ورئيس أساقفة إشبيلية شاكيا للأمبراطور فى ٢٣ كانون الثانى (يناير) ١٥٢٤ أن النبلاء يعارضون طرد المسلمين أو مضايقتهم لأن هذا يؤدى إلى خسائر مالية، وهم بذلك يبيعون آخرتهم بدنياهم.

انظر

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4, Fol. 97

وهى الوثيقة التى عرضها لى Lea وعنوانها بالإنجليزية كالتالى:

Letter of Cardinal Manrique to Charles V Concerning the co-erected converts of Valencia.

انظر حاشية رقم (١) وانظر أيضا:

محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة، ط٢، ١٩٥٨)، ص ٣٣٦.

H. C. Lea. op. cit., p. 28 (٢٩)

(٣٠) عانى أهل كاتالونيا (وقطلونية) من المسلمين، اضطهادا شديدا مما دفعهم للقيام بثورة عارمة قمعت بقسوة. راجع تفاصيلها فى:

J. H. Elliot, The revolt of the Catalons, A Study in the Decline of Spain 1595 - 1640.(Cambridge, 1963)

(٣١) وتحدث كاتب آخر، ولكن بإيجاز شديد عن اعتراض ارستقراطية أراجون وبلنسية على طرد المسلمين فى هذه المناطق. انظر

Jan Read, The Moors in Spain and Portugal.(London, Faber, 1974)

P. Coles, op. cit., p. 128. H. c. Lea op. cit., p.11 (٣٢)

Ibid., p. 128 (٣٣)

ويصف مرسيلين ديفورنو Defourneaux الحدائق والمزارع التى كانت غناء فاصبحت خرابا بعد خروج المسلمين الذين كانوا خبراء فى الزراعة والرى.

Marcelin Deforneaux, Daily life in Spain inthe Golden age. Translated by Newton Branch, 1979 pp.

(٢٤) H. C. Lea, op. cit., p. 366

(٢٥) Ibid., p. 366

(٢٦) Ibid., pp. 366 - 367

(٢٧) يقصد بالوثنية هنا الإسلام

(٢٨) H. C. Lea op., cit., p. 366

(٢٩) Ibid., p. 367

عن ارتفاع أسعار القمح ارتفاعا رهيبا فى منتصف القرن ١٧ خاصة، انظر:
E. Hamilton, war & Price in Spain, 1651 - 1800. (Cambridge, 1947), pp. 228 - 9

أما انخفاض سعر القمح عقب خروج المسلمين مباشرة فيرجع إلى أن قرار الترحيل القسرى النهائى ١٦٠٩ قد حكم عليهم ألا يحملوا معهم إلا ما يقدرون على حمله على ظهورهم، فأدى هذا إلى أن باع المسلمون كل ما كان لديهم من قمح وماشية وعسل.. إلخ. بأبخس الأثمان، فانخفضت الأسعار ولكن إلى حين، وهو انخفاض مفتعل غير طبيعى.

محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٨٢.

(٤٠) H. C. LEa, op. cit., p. 369

(٤١) Ibid., p. 368

(٤٢) Ibid., p. 368

(٤٣) Ibid., p. 369

(٤٤) الليبرا Libra وأيضا Liura عملة بلنسية وقطلونية (كاتالونية) كانت تحسب بالجنيهات والشلنات Sous والبنسات Diners،
H. Kamen , op. cit., p X11

(٤٥) الدوكات Dukat وتسمى أيضا Ducado وحدة نقد كانت تساوى ١١ ريالا Reale أما الـ Escudo فهى عملة ذهبية فى الأساس تساوى ١٠ ريالات أو ٣٤٠ مارافيدس Maravides والدوكات تستخدم فقط للدفع داخل قشتالة أما خارج قشتالة فيكون

الدفع بالفضة ويحسب بالـ Escudos. وهذا الأخير أقل قيمة من الـ Maravedis
H.Kemen Ibid, p. x 11

(٤٦) أحد أجزاء الليبرا وهى بمثابة البنس بالنسبة للجنيه

H. Kamen, Ibid., p X11

وانظر أيضا حاشية رقم (٤٣)

(٤٧) H. C. Lea, op. cit., p. 369

(٤٨) المارفيد، وكان الإسبان يسمونها العملة البربرية، وهى عملة كبيرة، وكانت أصغر وحدات النظام النقدى القشتالى، وكان الريال مثلا يساوى ٣٤ مارافيد؛ أما الدوكات فكانت تساوى ٣٧٥ مارفيد

E. J. Hamilton op. cit., p. 38
H. Kamen., op. cit., p. X11

وانظر أيضا حاشية (٤٤)

(٤٩) انظر حاشية (٤٤)

(٥٠) لم يكن النظام النقدى موحدًا فى إسبانيا بعد أن توحدت سياسيا، ولم يكن نظام المكاييل والموازين أيضا موحدا، وكانت نقاط الجمارك تفصل مناطق إسبانيا بعضها عن البعض الآخر، فلم يكن توحيد إسبانيا إلا شكليا فقط. فالأروبا Arroba كانت معيارا لقياس السوائل يختلف من منطقة لأخرى، وكانت الأروبا أيضا وحدة لوزن الصوف والتومباك فقط. وهى فى هذه الحالة تساوى ١٥ رطلا إسبانيا، والمائة رطل كانت تساوى ٩٧ رطلا إنجليزيا. وكانت القبيز Cabiz وحدة كيل الغلال، وكان فى قشتالة يساوى ١٢ فانيج Fanegas فى قشتالة، وتختلف قيمته فى المناطق الأخرى. أما التونيلادا Tonelada وهى الطن القشتالى فكان يساوى ٢٠ قنطارًا Quintals أو مائة وزنة Weight أما خارج قشتالة فتختلف القيمة الوزنية والعيارية له. أما النظام النقدى، فكان المارافيد هو الوحدة الأساسية فى قشتالة، والليبرا هى الوحدة الأساسية فى بلنسية وكاتالونيا (قطلونية) وكانت الدوكات سارية داخل قشتالة أما خارجها فالـ Escudo أكثر انتشارا.

H. Kamen, OP. Cit., pp. xii, xiii

وانظر أيضا الخريطة رقم (١)

وراجع الحواشى: (٤٣)، (٤٤)، (٤٥)، (٤٧)

(٥١) H.C.Lea, op. cit., p. 373

والدوق دى ليرما كان صفيا وخليلا ووزيرا للملك فيليب الثالث، وكان دى ليرما صاحب نفوذ على هذا الملك، كما كان صاحب نفوذ على سابقه.

محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص٢٧٧.

(٥٢) Ibid. p. 373

(٥٣) C. R. Philips, op. cit., p. 770

(٥٤) Ibid., pp. 771 - 773

(٥٥) Ibid., pp. 772 - 775

(٥٦) Ibid., pp. 770 - 771

(٥٧) H. C. Lea, op. cit., p. 359

(٥٨) Ibid., pp. 359 - 360

وكانت السلطات البرتغالية أيضا تنزع الأطفال الذين لم يبلغوا ١٤ سنة من المسلمين عند طردهم من البرتغال، ولقد خرج المسلمون البرتغاليون عن طريق إسبانيا أساسا بعد اتفاق إسبانى برتغالى بعدم السماح لهم بمغادرة إيبريا ومعهم ما يملكون من ذهب وفضة أو أية منقولات نفيسة، وكان القرار النهائى بطرد المسلمين من البرتغال سنة ١٤٩٧. راجع ذلك:

Archivo de Simancas, Inquisicion, Legajo Unico, Fol. 4

والتى قدم لها لى Lea عرضا وجعل لها عنوانا إنجليزيا كالتالى:

أنظر حاشية رقم (١)

(٥٩) H. C. Lea, op. cit., pp. 340 - 41

(٦٠) بعض هؤلاء كان يسافر بالأجرة فى بعض المراكب الإسبانية، وبعضهم كان يحملهم مجاهدو البحر، وبعضهم كانت ترحله الحكومة الإسبانية على حسابها. محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

(٦١) H. C. Lea, op. cit., pp. 341 - 342

وفى تقرير لمحاكم التفتيش ورد أن هؤلاء (البربر) لا يستمعون برغبة إلى العظات الدينية المسيحية وأن المراقبة الدقيقة لمن تحول للمسيحية منهم توضح أنهم كانوا

يتغامزون ويشيحون بوجوههم أثناء سماع هذه العظات.

Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Va lencia, Legajo 5 Fol. 298

وقد ذكر تفاصيل عن ذلك: محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٦٣ وما بعدها.

(٦٢) H. C. Lea, op. cit., p 341

(٦٣) H. Kamen, p. 59, 218

ويذكر محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٥٨ ما اصدره فيليب الثانى سنة ١٥٧٠ من نقل مسلمى غرناطة إلى اماكن مختلفة داخل البلاد.

راجع أيضا: محمد عبده حتامله: التهجير القسرى لمسلمى الأندلس. عمان، ١٩٨٢: ص ٨٧ وما بعدها.

(٦٤) H. p. Kamen, op. cit., p. 304

والواقع أن الذين تظاهروا بالتحول للمسيحية لم يكونوا فى أى وقت من الأوقات موضع ثقة السلطات الإسبانية، ففى وثيقة مؤرخة فى ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٥٢٤ أصدرها الرئيس العام لمحاكم التفتيش يتضح شكه فى حقيقة مسيحيتهم. وفى وثيقة أخرى مؤرخة فى كانون الثانى (يناير) ١٥٣٤ ارسل مانريك رئيس محاكم التفتيش بعض مبعوثيه لكتابة تقارير عن المسيحيين الجدد، وفى ١٥٦١ ينصح رئيس محاكم التفتيش بمراقبة المسيحيين الجدد. وقد أشرنا للعناوين الإنجليزية لهذه الوثائق فى حاشية (١)، اما عناوينها الأصلية فنكررها هنا مرة أخرى:

Archivo de Simancas, Patronate Real, Inquisicion, Legajo unico Fol 36, 39
Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4, Fol 262
Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 77, Fol 228

ومن المراجع التى أشارت بإيجاز إلى أن المسلمين الذين تحولوا للمسيحية لم يكن تحولهم إلا شكليا، وانهم لم يكونوا موضع ثقة.

Derek W. Lomax, The Reconquest of Spain, p. 172

وقد ذكر باحث عربى يعرف الإسبانية واتيحت له فرصة مراجعة أرشيفاتها نماذج أخرى لمسلمين كتموا إسلامهم ووصلوا إلى مرتبة كنسية كبيرة، ولما كشف امرهم تم إعدامهم. وكانوا من منطقة استرامادورا Estramadora راجع: محمد عبده حتماله، التهجير القسرى لمسلمى الأندلس، (عمان، ١٩٨٢)، ص ٨٢

(٦٥) H. Kamen, op. cit., p. 39

(٦٦) Ibid., p. 40

(٦٧) Ibid., p. 41

(٦٨) ذكر ذلك Lorezo سنة ١٥٧٥، انظر H. C. Lea, op. cit., p. 272

وأكد هذه الحقيقة سرفانتس دى ساندرا (١٥٤٧ . ١٦١٦) وهو من أعظم أدباء إسبانيا انظر: محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٦٥، ٣٧٨. وانظر أيضا لوى كارادياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية، ترجمة د. عبد الجليل التميمى، (تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ١٩٨٣)، ص ١٤٥

(٦٩) J. Lynch, Spain. Oxford, 1969. vol. 2. pp. 271 - 272
Antonie Brunel, A Journey into Spain (London, 1970).p. 18.
H. Kamen, op. cit., p. 24

وليس أدل على أن الرغبات الكنسية فى طرد المسلمين كانت تتعارض مع رغبات الناس ماورد فى استفتاء أجرته محاكم التفتيش نفسها سنة ١٥٩٠ إذ وجه المفتش العام كيروجا Quiroga باسم الملك استفتاء موجزه: هل تطرد المسلمين أم نبقيهم، وما هى الحجة فى كل حالة؟ ويذكر التقرير (الوثيقة) أنه كان هناك تلكؤ أو عدم رغبة حاسمة فى الطرد.

Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Valencia, Legajo 5, No1. Fol. 254

عن العنوان الإنجليزى الذى وضعه لى للوثيقة راجع حاشية (١)

(٧٠) P. Coles, op. cit., p. 107

(٧١) Ibid. pp. 107 - 108

(٧٢) يقصد العثمانيين والواقع أن كولز يستخدم الترك بمعنى العثمانيين فى معظم كتابه.

(٧٣) P. Coles, op. cit., p. 107

(٧٤) أى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، والمقصود هنا (المسلمون)

(٧٥) Ibid., p. 107

(٧٦) Ibid., p. 107 - 108

(٧٧) Ibid., pp. 124 - 125

ومن المراجع التى تعرضت للاتصالات بين سكان شمال إفريقيا ومسلمى الأندلس بإيجاز شديد جدا:

Charles Petrie, A short history of Spain, (London: Sidgwick and Jackson, 1975), p. 40

(٧٨) P. Cloes, op. cit., p. 126 - 127

(٧٩) Ibid., pp. 127 - 128

(٨٠) Ibid., p. 127

(٨١) Ibid., p. 127

(٨٢) Ibid., p. 91

(٨٣) Ibid., p. 128

(٨٤) Ibid., p. 141

(٨٥) Ibid., p. 141

وقد لاحظ الرحالة Defourneaux أن معظم التجارة داخل إسبانيا لا يباشرها الإسبان. انظر:

M. Defourneaux, op. cit., pp. 20- 21

وقد بلغ من حدة الأزمة الاقتصادية الإسبانية أن تخصصت فئة من الكتاب فى متابعتها وتحليلها وعرفوا فى التاريخ الإسبانى باسم Arbitristas ورغم تحذيراتهم المبنية على تحليلات علمية إلا أن المتعصبين والمندفعين ورجال البلاط كانوا أعلى صوتا. انظر:

E. J. Hamilton, Decline of Spain, pp. 20-30

H. Kamen, op. cit., p. 69

J. H. Elliot, Imperial Spain, (London, 1963), p. 67

(٨٦) P. Coles op. cit., p. 142

(٨٧) Ibid., p. 143

(٨٨) H. Kamen, p. 13

H. Kamen, War of succession, pp. 25, 83-84

J. H. Elliot, op. cit., pp. 361 - 371

M. Defourneaux, op. cit., p.26

(٨٩) P. Coles, op. cit., pp. 122 - 130 .

راجع أيضا حاشية رقم (٤٩) وخريطة رقم (١)

(٩٠) بل وظل التأثير بعد ذلك، فضياع حقب طويلة من التاريخ الإسبانى بلا جدوى والجهود المدمرة لمحاكم التفتيش وعدم دمج العناصر السكانية، كل هذا ترك تأثيره حتى فى إسبانيا المعاصرة، ولكن تتبع ذلك فى إسبانيا المعاصرة يخرج عن نطاق هذا البحث.

(٩١) P. Coles, op. cit., p. 130

(٩٢) رغم أننى اقتصرت فى هذا البحث على الجانب الاقتصادى، وما يمسه مسا وثيقا وحددت بداية القرن السادس عشر كبداية له، إلا أننا لو راجعنا بعض المراجع السابقة على القرن السادس عشر، والمعاصرة له، لوجدنا ما يؤكد خسارة إسبانيا لعدد كبير من العلماء العرب المسلمين، كانوا غرة فى جبين الدهر، إذ هجروا إلى المشرق أو بلاد المغرب، نتيجة الاضطهاد، فهاهو المقرى (ت١٠٤١هـ) يقول: «اعلم.. أن حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام..»

انظر:

المقرى، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. حققه إحسان عباس . بيروت، دار صادر، ١٩٦٨ . جـ٢. ص ٥

ولا بأس من مراجعة التراجم التى أوردها ذو الوزارتين، لسان الدين بن الخطيب، رغم أنه سابق على الفترة التى نؤرخ لها (فى القرن الثامن للهجرة) لمعرفة ما كانت تزخر به هذه البلاد من علماء مسلمين. انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة. حققه محمد عبد الله عنان . القاهرة، ط٢، مكتبة الخانجى، ١٩٧٣ .

والحقيقة أن المراجع العربية التراثية، كنفح الطيب، والإحاطة وغيرها، لم تركز على الجوانب الاقتصادية، وانما اهتمت كثيرا بالأدب، والشعر على نحو خاص؛ كما تعرضت للجوانب السياسية.

المراجع

أولا: كتب باللغة العربية

حتاملة، محمد عبده، محنة مسلمى الأندلس عشية سقوط غرناطة، عمان ١٩٧٧.

حتاملة، محمد عبده، التنصير القسرى لمسلمى الأندلس، عمان، ١٩٨٠.

حتاملة، محمد عبده، التهجير القسرى لمسلمى الأندلس، عمان ١٩٨٢

عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٨

عنان، محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦١.

كاردياك، لوى الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجبلية، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمى، تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ١٩٨٣.

المقرى، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨

ثانيا: وثائق وكتب باللغات الأوروبية

Archivo de Simancas, patronate Real, Inquisicion, Legajo unico, Fol. 38, 39

Archivo de Simancas, Inquisicion Libro 4, Fol. 262.

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 77, Fol. 228.

Brunel, Antonie, A Journey into Spain, London 1970

Coles, Paul, The Ottoman Impact on Europe, London 1968

Defornaux, Marcelin, Daily Life in Spain in the Golden Age, Translated by Newton Branch 1979.

Elliot, J. H. Imperial Spain, London 1963

Elliot, J. H., The revolt of the Catalons, a study in the decline of Spain, 1595 - 1640, Cambridge, 1963.

Hamilton, E., War and Peace in Spain 1651-1800, Cambridge, 1947

Hamilton, E., Decline of Spain

Kamen, Henry, Spain in the later 17th Century, 1665 - 1700 London, Longman, 1980

Kamen, Henry, war of Succession.

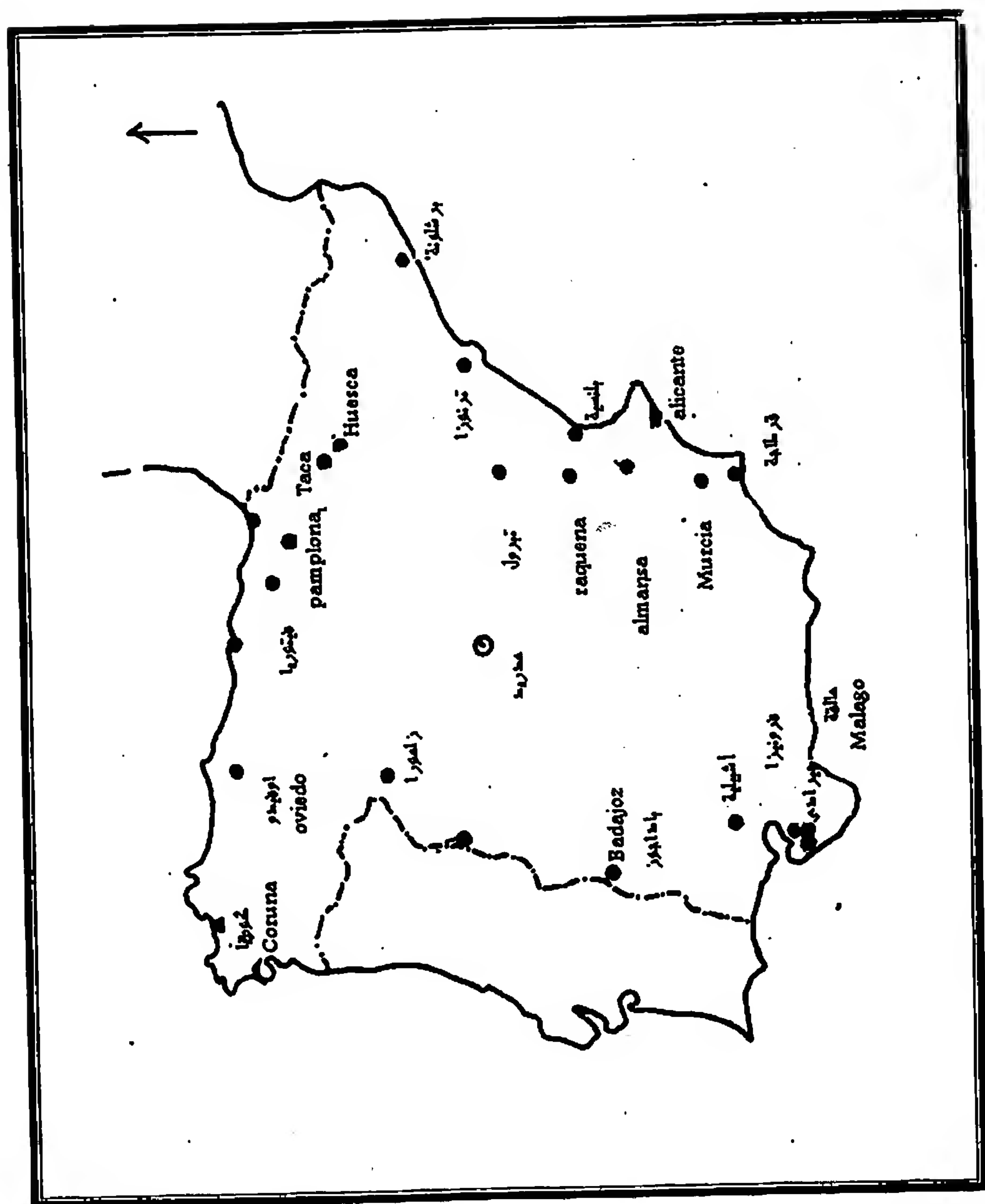
Lea, Henry Charles, The Moricos of Spain, the conversion and expulsion, Philadelphia, lea Brothers, 1901

Lomax, Derek W. The reconquest of Spain

Lynch, J. Spain, Oxford 1969

Petrie, Charles, A short History of Spain, London, sidgwick and Jachson, 1975

Phillips, Carla Rahn, The Spanish wool Trade, 1500 - 1780, in the Journal of Economic History, IV, 1982.
Read, Jan, The Moors in Spain and Portugal, London, Faber, 1974.



مراكز الجمارك الأسبانية فى القرن ١٧.

المصدر:— **Kamen,** Henry: in the later seventeenth Century 1665 — 1700 . p. 16

المبحث الرابع

من التفاعلات الثقافية والدينية المتوسطيّة
حركة إصلاح دينى أوربية
لم تلق الاهتمام الكافى

اتهم الكاثوليك لوثر ورفاقه بالخروج على المسيحية واتهم البروتستنت الكاثوليك بأنهم ليسوا على المسيحية الصحيحة، ولكن الطرفين ـ الكاثوليك والبروتستنت ـ تعاونا معا فى إحراق جماعة أخرى واضطهادها، هى الجماعة المناهضة للتثليث. وهى تشكل حركة بكل معانى الكلمة فى التاريخ الأوروبى، وتشير لها مراجع التاريخ الأوروبى العام، وتاريخ الأديان التى كتبها أوروبيون تحت عنوان شامل، هو الهراطقة والهرطقة. وتشير الكتب العربية التى تناولت التاريخ الأوروبى إلى هذه الحركة بالتسمية نفسها التى تسميها بها المراجع الأوروبية، وهذا خطأ واضح. وقد اعتمدنا فى هذا البحث على وثائق منشورة ومصادر أصلية. ولعل هذا البحث يكون فاتحة لبحوث أخرى عن هذه الحركة المجهولة، مكتوبة من وجهة نظر عربية إسلامية.

مقدمة

المعروف أن القرن السادس عشر فى أوروبا قد شهد حركة شهيرة عرفت بحركة الإصلاح الدينى، نتج عنها مذهب جديد، عرف بالمذهب البروتستنتى، منشقا عن كنيسة روما الكاثوليكية. وكان الكاثوليك وكنيستهم يسمون هؤلاء المعترضين البروتستنت هراطقة أو مبتدعين. وقد شغل هذا الصراع بين البروتستنت والكاثوليك مساحة كبيرة فى كتب التاريخ الأوروبى، وهو جدير بهذه المساحة وأكثر. فقد شارك هذا الصراع فى صياغة خريطة أوروبا المعاصرة. فالصراع بين الكاثوليك والبروتستنت كان أحد أسس ثورة الأراضى المنخفضة التى نتج عنها قيام كيانين: هولندا فبلجيكا. وهذا الصراع نفسه هو الذى أصّل وعمّق استقلال سويسرا، مما أدى إلى اعتراف مجتمع الدول الأوروبية بها فى النهاية كدولة مستقلة سنة ١٦٤٨م فى صلح وستفاليا. وهذا الصراع نفسه هو الذى صاغ تاريخ إنجلترا (بريطانيا فيما بعد)، فلا أحد إذن يُقلل من أهمية حركة الإصلاح الدينى التى تزعمها لوثر أولا وتلاه زونجلى فكلفن. تلك العصبة التى أطلق عليها الكاثوليك اسم الهراطقة أو المبتدعين.

وهذه الحركة الإصلاحية التى تزعمها لوثر، فزونجلى وكلفن بعده اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية، فقد أزكاها رغبة الأمراء الألمان فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى مقاطعاتهم. كما أزكاها رغبة الإمبراطور فى عدم تدخل البابا فى شئونه. كما أن رغبة الملك الإنجليزى هنرى الثامن فى طلاق زوجته، كانت أحد العوامل فى تبنية منهجا إصلاحيا وخروجه على البابا. لكن الباحثين فى التاريخ الأوروبى يُغفلون أو يُشيرون على استحياء إلى حركة إصلاحية دينية من نوع آخر زامنت وواكبت حركة مارتن لوثر، تلك هى حركة الموحِّدين Unitarians أو المناهضين للتثليث(١) ولقد حظى هؤلاء الموحدون باتهامات من الكاثوليك والبروتستنت معا. وحركة الموحدين الأوروبيين تلك حركة دينية خالصة، وإصلاح دينى خالص لم تختلط فيها الأطماع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. بدليل أن هذه الحركة اتخذت شكل المناظرات والمناقشات الفكرية فى الغالب الأعم، ولم يلجأ القائمون عليها إلى عقد محالفات مع أمراء أوروبا، أو لم ينجحوا فى ذلك. كما انهم اتخذوا إنشاء المدارس والكليات طريقا لبث دعوتهم، كما سيتضح من ثنايا هذا البحث. كما أن عددا كبيرا من المنخرطين فى سلك هذه الدعوة كانوا من العلماء الأفذاذ فى مختلف المجالات. وتلك الحركة هى موضوع هذا البحث الذى أرجو أن يكون بداية تعقبها بحوث أخرى.

إرازم والبداية

كانت بداية إثارة الأفكار المناهضة للتثليث فى التاريخ الأوروبى الحديث على يد أحد رواد الحركة الإنسانية فى القرن السادس عشر، ونعنى به إرازم Erasmus. لقد أقدم إرازم على الرجوع إلى نسخ عديدة من الإنجيل باللغة اليونانية ولم يكتف بالرجوع إلى الترجمات اللاتينية المتاحة. وشرع يُترجم من اليونانية

مباشرة إلى اللاتينية وقرر إرازم أنه وجد فى النص الإنجيلى الشائع على أيامه كثيرا من الأخطاء الواضحة[٢] والأهم من هذا أنه عندما أصدر الإنجيل الذى ترجمه، والإنجيل اليونانى الذى حققه من نسخ عديدة سنة ١٥١٦م أسقط منه العبارات المتعلقة بالتثليث أو على حد تعبير «دائرة معارف الدين والأخلاق» "His omission of the famous Trinitarian verse" Encyclopedia of Religion and Ethics[٣] ولم يكن من الممكن للرأى العام المسيحى وقتها أن يعتبر هذا خطأ غير مقصود. أو سهوا أو خللا طباعيا، خاصة وأن من جملة الأفكار الأساسية التى كان يرددها الإنسانيون ومن بينهم إرازم فى ذلك الوقت أنه ينبغى أن ينفض العالم المسيحى كل ما يظن أنه دخيل على المسيحية. وأنه من الضرورى الرجوع للأصول الأولى قدر الممكن. كما كان من الآراء التى يرددها إرازم أن الإنجيل (العهد الجديد) الشائع على أيامه زاخر بالأخطاء اللغوية والأخطاء فى المعانى الناتجة عن عدم فهم فيلولوجية اللغتين اليونانية واللاتينية. ورغم أن إرازم قد خاطب البابا ليو العاشر بشأن التناقض فى الترجمة الإنجيلية المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية Vulgate's discrepancies برقة وأدب شديدين[٤]، إلا أن هذا لم يُقلل من خطورة ما أقدم عليه بنشر نص يونانى للإنجيل يختلف فى بعض معانيه مع النص اللاتينى المعتمد. ورغم أن إرازم لم يهاجم عقيدة التثليث، إلا أن نشره لنص إنجيلى خال من الإشارة إليها جعل الأعمال التى راحت تُنكر فكرة التثليث بشكل مباشر تتوالى تباعا، حتى اتخذت شكل حركة بكل معانى الكلمة، تفاعلت بها أوروبا كلها، حتى أنها فى تأثيرها الدينى لم تكن تقل خطرا وأهمية عن حركة مارتن لوثر ورفاقه وإن كانت آثارها السياسية أقل قيمة.

لقد كتب مارتن سيلاريوس Martin Cellarius (١٤٩٩ - ١٥٦٤م) الذى كان تلميذا ليوحنا رخلن Reuchlin، وكان أيضا تابعا وصديقا لمارتن لوثر، مهاجما

فكرة التثليث. وفى ١٥٢٧م أيد آراءه هذه بكتاب نشره فى ستراسبورج -Stras bourg سماه Deopubus Dei(٥).

ظهور سيرفيتوس وإحراقه

على أن المفكر الأكثر أهمية وشهرة ووضوحا فى هذه الحركة المناهضة للتثليث هو سيرفيتوس Servetus (١٥١١ - ١٥٥٣م) الذى أصدر كتابه الشهير «خرافة التثليث» De Trinitatis Erroribus سنة ١٥٣١م. وعلى إثر ذلك «بدأ هياج ولغط كبير بين المعلمين ورجال الدين والمحامين وعلماء الطبيعة والرياضيات ورجال العلم والأدب.. لقد أصيب الجميع بحالة عدم توازن فكرى were all astire لقد رحلوا من مكان إلى مكان بحثا عن الحقيقة وانخرطوا فى مناقشات صاخبة. وذهبت أفكارهم كل مذهب. ففى نابلى Naples كان الشاب الإسبانى يوحنا ڤالدز John Voldes قد كون جماعة دينية ضم إليها النبيلات لدراسة الكتاب المقدس وإعادة النظر فيه. وظلت الجمعية قائمة حتى وفاته سنة ١٥٤١م» وفى ١٥٣٩م وجد ميلانشتون Melanchthon(٦) أنه من الضرورى أن يحذر من انتشار أفكار سيرڤيتوس على نطاق واسع فى شمال إيطاليا. ثم ظهر برنارد أوشينو Bernard Ochino (١٤٨٧ - ١٥٦٥م) الذى عبر سويسرا واتجه إلى لندن، وكان يحارب فكرة التثليث بكل قواه. وفى ١٥٣٩م تم إحراق كاترين ڤوجيل Catherine Vogel وكانت زوجة جواهرى، وكانت فى الثمانين من عمرها وذلك لاعتقادها كما جاء فى قرار الاتهام «بوجود إله واحد لا شريك له، خالق كل شىء، ما نراه وما لا نراه ولا يمكن للعقل البشرى أن يحيط به.»(٧)

ولما كان سيرڤيتوس Migel Servetus أكثر أفراد الحركة المناهضة للتثليث صخبا فى هذه الفترة وكان له من الثقل العلمى ما يجعله جديرا بالاهتمام، لذلك لابد أن نتوقف لاستعراض ظروفه وأهم أفكاره خاصة وأن كتب تاريخ الهرطقة

قد أفردت له فصولا مستقلة. ورغم أن مؤلف كتاب «حق الهرطقة» يصفه بأنه شخص لم يكن على قدر فائق من الذكاء وأنه كان مضطرب الشخصية سيئ التنظيم، إلا أنه يعود فيقول عنه إنه كان ذا عقل قوى. ويزعم مؤلف كتاب «حق الهرطقة» أن سيرفيتوس لم يتفوق فى علم من العلوم مع أنه درسها جميعا. فقد درس الفلسفة والطب واللاهوت؛ إلا أن المؤلف يعود فيقول إن له ملاحظات واكتشافات طبية رائدة(٨).

لقد كان سيرفيتوس يعتقد أن لوثر وكلفن وزونجلى لم يكونوا حاسمين بما فيه الكفاية فيما يتعلق بعقيدة التثليث the dogma of the trinity كما أنهم لم يُطهروا الإنجيل cleansing على حد قوله من هذه الفكرة الخاطئة. بل لقد أعلن سيرفيتوس أن مجمع نيقية Council of Nicaea قد قرر عقيدة التثليث على نحو خاطئ(٩) وقد أكد سيرفيتوس إنكاره لفكرة التثليث فى عدة كتب أصدرها تباعا، وترجمت للإنجليزية حاملة العناوين التالية:

Seven Books on the Errors of the Trinity (1531)

Two Dialogues on the Trinity (1532)

(١٠)The Restoration of Christianity (1535)

لقد تملكت الأفكار المناهضة للتثليث عقل سيرفيتوس وقلبه فلم يكتف بدعوة الناس العاديين لها، وإنما راح ببراءة يزور كل رجال الدين ليقدم لهم براهينه. كما راح يزور كل علماء عصره لهذا الغرض. ففى ستراسبورج Strasbourg زار كلا من رجال الدين المشهورين: مارتن بوسر Buccr وكابيتو Capito .. الخ، وفى بازل Basle زار أوكلامباديوس Oecolampadius ليحثه على إصدار بيان أو كتاب عن تهافت عقيدة التثليث وخطئها وأنها مُقحمة على المسيحية الحقة(١١) وكان رد فعل رجال الدين المسيحى من الكاثوليك والبروتستنت على السواء

عنيفا ضد سيرفيتوس ووصفوه جميعا بأنه (مبعوث الشيطان) ويذكر تسفايج Zweig مؤلف كتاب حق الهرطقة أن أوكلامباديوس Oecolampadius قد طرد سيرفيتوس على نحو ما «يُطْرَد كلب أجرب» وقد قرر أوكلامباديوس بأن سيرفيتوس ماهو إلا «يهودى أو تركى. وهو كافر يجدف على الله.» وحذر زونجلى أتباعه من أفكار سيرفيتوس ذاكرا أن أتباعه سيخسرون عقيدتهم المسيحية. أما بوسر Bucer فقد أعلن أن سيرفيتوس هو «ظل الشيطان»(١٢). ولما يئس سيرفيتوس من إقناع الخاصة من رجال الدين توجه بدعوته إلى الجماهير فأصدر كتابه الذى سبق أن أشير إليه وهو «خرافة التثليث» بعد أن أنفق كل ما يملك لطبعه. وأعلن سيرفيتوس بوضوح أن الكاثوليكية والبروتستنتية كلاهما هراء. وظن سيرفيتوس أنه سيجد خيرا عند كالفن فراح يراسله مراسلات ضافية زاخرة بالمسائل اللاهوتية. ولكن كالفن حقد عليه حقداً شديدا، ليس لأسباب دينية فحسب وإنما لأسباب شخصية أيضا. فلم يكن سيرفيتوس يخاطبه على أنه زعيم دينى كبير. كما أنه وجه نقداً لكتابات كالفن واصفا إياها بأنها كموضوعات الإنشاء التى يكتبها الصبية. وفى آخر خطاب من سيرفيتوس لكالفن ذكر له ما نصه: «أأنا شيطان؟ أنا أقترح الا تكون بيننا مكاتبات بعد الآن. أعد إلى مخطوطاتى وكل مالى طرفك. ولكن إذا كنت تعتقد بصدق أن البابا ليس مسيحيا حقيقيا، فيجب أن تعرف أيضا أن التثليث وتعميد الأطفال هراء.. إنها عقائد فاسدة.»(١٣)

ورغم أن سيرفيتوس ظل هادئا بعد ذلك لبضع سنوات إلا أن حقد كالفن عليه لم ينته وراح يدبر لاستدراجه لجنيف ذاكرا أنه لو دخلها فلن يخرج منها حيا. وراسل كالفن البروتستنتى بعض الكاثوليك فى فرنسا حيث كان يقيم سيرفيتوس مذكرا إياهم بهرطقته، وتآمر رجال الدين فى ليون مع رجال الدين البروتستنت فى جنيف على هذا «الطبيب المجدّف» على حد تعبيرهم. وقد تم سجن

سيرفيتوس فى فرنسا، ولكنه فر من سجنه متوجها إلى جنيف وكأنه يسعى إلى حتفه بنفسه. ودخلها فى ١٣ أغسطس ١٥٥٣م. وتوجه إلى كاتدرائية سانت بيير St. Pierre فأصدر كالفن أمره بالقبض عليه..وسجن سيرفيتوس ولاقى فى سجنه كل أنواع العنت، ويبدو أن آراء سيرفيتوس كانت قد بدأت تنتشر مما أفزع كالفن لدرجة أنه كان فى حاجة إلى مراسلات يرسلها فى كل اتجاه ليحصل على دمغ لآراء سيرفيتوس قبل إحراقه. وفى ٢٦ أكتوبر ١٥٥٣م قرر مجلس مدينة جنيف بالإجماع وبتحريض من كالفن إحراق سيرفيتوس حيا[١٤] وتقدم بعض أصدقائه منه وهو على المحرقة طالبا منه العدول عن آرائه فى رفض التثليث، ولكنه أبى[١٥].

وهكذا تناقضت البروتستنت مع أنفسهم. ووقعت الحركة الإصلاحية فى الأخطاء نفسها التى وقع فيها أعداؤهم الكاثوليك. لقد كان الإصلاحيون البروتستنت ينظرون للمسألة الدينية من وجهة نظر أساسية وهى أن العلاقة بين الإنسان وربه يجب أن تكون حرة ومباشرة إذ «يجب أن يكون الإنسان حرا ومسؤولا مسؤولية مباشرة أمام ربه وحده ودون وساطة من بشر»[١٦] إلا أنهم بإحراقهم الجماعات المناهضة للتثليث يكونون قد تدخلوا بين الإنسان وربه.

ورغم أن الحركة الإصلاحية البروتستنتية كانت تعيب على الكنيسة الكاثوليكية عدم تسامحها وإجبارها الناس على معتقدات لا يريدونها واتخاذها أساليب العنف والإحراق ضد مخالفيها، إلا أن البروتستنت أنفسهم كما رأينا سرعان ما اتخذوا الأساليب نفسها التى كانوا يمجونها من قبل[١٧] خاصة ضد الموحدين أو المناهضين للتثليث.

وقد لاحظ بعض الباحثين فى مقارنة الأديان أن «نظرة الإسلام السنى تشبه على نحو ما نظرة أتباع الحركة المناهضة للتثليث Unitarianism»[١٨] ورغم أن

سيرفيتوس كان واحدا من كثيرين قالوا بعدم التثليث إذ أن القائلين بهذه الأفكار كانوا يشكلون حركة. إلا أن شهرته واحتفاء المراجع به ترجع إلى أن الرجل لم يكن نكرة فى عالم الدين والعلم. فهو عالم وطبيب لاهوتى من أصل إسبانى ودارس متعمق للقانون. لقد كان قمة من قمم العلم فى القرن السادس عشر. ولا يخلو كتاب من كتب تاريخ العلوم من الإشارة إليه، فقد ترجم كتاب الجغرافيا لبطليموس(١٩) Ptolemy's Geography وهو أحد المكتشفين الكبار لتركيب الدم وحركة الدم فى الرئة the pulmonary circulation of the blood كما كان عالما فى مجال التشريح ووظائف الأعضاء(٢٠) ورغم إحراق سيرفيتوس فإن أفكاره لم تمت. فسرعان ما دافع عن أفكار صديقه عالم النبات ليوناردفكس Leonard Fucks ولعل كون سيرفيتوس من أصل إسبانى، بالإضافة لاتهام اعدائه له بأنه تركى أو متأثر بالترك، لا يجعلنا نستبعد تأثيرات إسلامية على تفكيره كما لا نستبعد بالقدر نفسه أن تكون أفكاره هذه مستقاة من أصول إنجيلية صحيحة، خاصة وأن وجهة النظر الإسلامية تشير من خلال القرآن الكريم إلى أن المسيحية فى بدايتها كانت من أديان التوحيد الخالص(٢١).

والواقع أنه عندما أحرق أهل جنيف سيرفيتوس أحرقوا معه كل طبعات كتبه فيما عدا نسخا قليلة(٢٢) وتكفلت محاكم التفتيش بإحراق النسخ التى كان بعض الناس يحتفظون بها لأنفسهم، لهذا وجدنا المراجع تختلف اختلافا شديدا فيما ذهب إليه سيرفيتوس. ففى حين نجد بعض الباحثين يذكرون أن سيرفيتوس لم يجعل المسيح (عليه السلام) إلها، وأنه قد وضعه فى مرتبة أقل مما يضعه سائر المسيحيين، نجد مراجع أخرى تذكر غير ذلك. إذ نجد أن مور Moore يذكر أن سيرفيتوس كان يعتقد أن المسيح نفسه هو الله(٢٣)، ثم يعود الكاتب نفسه فيورد نصا لاتينيا يستخلص منه أن سيرفيتوس قد وضع المسيح (عليه السلام) فى مرتبة أقل(٢٤)، ويذكر باحث آخر أن سيرفيتوس كان باختصار ينكر قدسية

المسيح[٢٥] ولسنا نجد تفسيرا لموقف الذين قالوا إن سيرفيتوس ذكر أن المسيح نفسه هو الله، إلا أنهم بعد إحراق الرجل أرادوا أن يخففوا التهمة الموجهة إليه، على اعتبار أن إنكار الوهية المسيح، هو أقصى درجات الكفر بالنسبة للمجتمع المسيحى، سواء كان كاثوليكيا أم برتستنتيا. ولما كان سيرفيتوس أحد علماء عصره، ومخافة أن يتأثر بأفكاره الدينية قوم آخرون، لذا جرى تشويه هذه الآراء. وتلك مسألة معروفة فى التاريخ الكنسى خاصة، وتاريخ الفكر عامة، ولا نعدم شبيها لهذا فى تاريخ الفكر الإسلامى إذ كثيرا ما شوه أعداء الإسلام أفكار بعض مفكريه بعد مماتهم. على كل حال، لقد كان ميلانشتون، ساعد مارتن لوثر الأيمن، قد كتب إلى كالفن ذاكرا أن سيرفيتوس يستحق كل عقاب، وأنه - أى ميلانشتون - يوافق على أى عقاب ينزل به[٢٦] والواقع أن كالفن لم يكن يطيق المختلفين معه فى الرأى، فقد أجبر على سبيل المثال لاهوتيا آخر على مغادرة جنيف وهو كاستليو Sebastian Castellio فتركها له سنة ١٥٤٤م[٢٧] ومهما يكن من أمر فقد رفضت الكنائس الأوروبية اعتبار المناهضين للتثليث مسيحيين بينما اعتبروا هم أنفسهم المسيحيين الحقيقيين[٢٨] ورأى عدد كبير من المسيحيين وهو عدد ليس بالقليل أن المسيح مجرد شخص مميز ورفضت الكنائس الأوروبية الرسمية ذلك[٢٩].

تبلور حركة المناداة بالتسامح الدينى نتيجة اضطهاد المناهضين للتثليث

يجمع الباحثون فى تاريخ الأديان من الأوروبيين أن الاضطهاد الذى لاقاه المناهضون للتثليث من قبل الكاثوليك والبروتستنت على السواء هو الذى بلور المناداة بالتسامح الدينى toleration. ففى سنة ١٥٥١م أعلن كاستيلو Sebastian Castellio أنّه لا ينبغى أن تُرتكب الجرائم لفرض عقيدة ما فيجب أن تكون حرية الاعتقاد مكفولة[٣٠] لقد اهتز الضمير الأوروبى نتيجة إحراق سيرفيتوس[٣١]

وإحراق مسيحيين آخرين لا يدخلون تحت حصر بتهمة الهرطقة التى كانت تعنى فى المقام الأول إنكار التثليث. فرغم كلمات لوثر التى تنص على أنه «لا يجب استخدام العنف ضد الهراطقة وإنما علينا أن نهديهم بكلمات الله، فالهرطقة مسألة معنوية روحية لا يمكن أن نغسلها بنار الأرض ومائها(٣٢) ورغم هذه الكلمات فقد تم إحراق مالايقل عن عشرة آلاف مسيحى فى قرن واحد تحت شعار العقيدة الحقة(٣٣) رغم أن لوثر نفسه قد اتهم بالهرطقة(٣٤) ورغم هذا فإن البروتستنت لم يأخذوا العبرة من ذلك فشاركوا فى إحراق كثيرين من بينهم نساء(٣٥) بل وأسر كاملة حيث كان يساق للحرق كل من الزوج والزوجة والأبناء(٣٦) وأبدى بعض المحرقين تمسكا وشجاعة فقد ذهبت امرأة للمحرقة كأنما هى «ذاهبة لعرسها»(٣٧) وأحضروا زوجة رجل وأولاده بالقرب منه قبيل احتراقه ليعود عن معتقده فرفض حتى ولو جعلوا له «ملء الأرض ذهبا»(٣٨) على حد قوله. وصرخ رجل وهو يحترق قائلا، «لقد أخفيتم حقيقة الإنجيل فترة طويلة»(٣٩) وقد أورد براندت تفاصيل مُذهلة عن حفلات النار هذه استغرقت من كتابه ذى القطع الكبير حوالى ٤٠ صفحة، وكان يدخل من ضمن الهراطقة الذين أحرقوا أولئك الذين يعارضون «سلطة البابا والمناهضون لتعميد الأطفال»(٤٠)

أوشينو

ومن أقطاب الحركة المناهضة للتثليث برنارد أوشينو Bernard Ochino الذى حارب عقيدة التثليث بكل قواه على أساس أنه لم يجد لها سندا فى الأصول الإنجيلية. ومن الأمور التى قال إنه لم يجد لها فى الأصول الإنجيلية سندا مسألة تحريم تعدد الزوجات. إذ قال إنه مباح وإن العبارات الإنجيلية التى فُهم خطأ منها المنع، يجب أن تُحمل على سبيل المجاز. وأن من فهم أن تعدد الزوجات ممنوع لا يفهم اللغتين اليونانية واللاتينية(٤١) ولقد اعتمد أوشينو فى

تفسيراته تلك على ترجمة كازيليو Casellio الإيطالية للإنجيل والتى رفضها كالفن(٤٢)

وبطبيعة الحال فقد حارب كل من الكاثوليك والبروتستنت آراء أوشينو عن تعدد الزوجات كما حاربوا إنكاره لفكرة التثليث.

ولم يكن برنارد أوشينو شخصا عاديا بعيدا عن علوم الدين المسيحى وإنما كان من أكثر رجال الدين شهرة فى عصره مشهودا له «بطاقاته الروحية وبركاته» على حد قول مؤلف كتاب «الإصلاح الكاثوليكى» بير جانيل(٤٣) وقد ترقى فى السلك الكنسى إلى رتبة كاردينال سنة ١٥٣٨م ولكن سرعان ما فُتن بالبروتستنتية فاعتنقها وظل فترة حائرا «بين العقيدة الصحيحة والهرطقة»(٤٤) وكان له اتصالات بالحركة الإصلاحية الدينية فى إنجلترا(٤٥)

أما داڤيد جوريس David Joris (١٥٠١ - ١٥٥٦م) فقد ذكر فى كتابه الموسوم باسم Wonder Book والصادر سنة ١٥٤٢م أنه لا يوجد إلا «إله واحد أحد Sole لا يُرى. وأنه لمن الحُمق أن نتصوره فى ثلاثة أشخاص أو ثلاثة ذوات أو نتصوره على هيئة ثلاثية»(٤٦)

لقد هاجر آلاف من معتنقى فكرة الإله الواحد من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا هروبا بعقيدتهم إلى إنجلترا خلال حكم هنرى الثامن وكوَّنوا كنائس أسموها كنائس الغرباء(٤٧)؛ وبهذه الهجرة دخلت الحركة فى مرحلة أخرى إذ بدأت أفكارهم تتفاعل فى شمال أوروبا وزاد من قوة الحركة دخول قسس معترف بهم من عامة المسيحيين فيها.

ففى ٢٨ ديسمبر ١٥٤٨م طلع علينا القس الإنجليزى جون اشيتون John Ass-heton بقوله: «إن الروح القدس ليس هو الله وإنما هو قوة أرسلها إلله وأن عيسى المسيح الذى تلقته مريم العذراء هو نبى مرسل مبارك. ولكنه أبدا لا يمكن أن يكون الإله الحى»(٤٨)

ولكن حظ المناهضين للتثليث فى إنجلترا لم يكن أفضل من حظهم فى سواها، ففى إبريل ١٥٤٨م عينت لجنة لبحث أمور الهراطقة، وقد مثل كثيرون من التجار وأصحاب الحرف أمام هذه الهيئة فى شهر مايو من العام نفسه. وكانت التهمة الموجهة إليهم هى أنهم يقولون «لا تثليث وأن المسيح نبى وليس إلهًا البتة. وأن كل ما قدَّمه لنا المسيح هو أنه علمنا الطريق إلى السماء»(٤٩) وقد نفذت فيهم أحكام قضائية تصل إلى السجن مدى الحياة.

الحركة السوسينية

ثم تمركز المناهضون للتثليث فى بولندا خاصة منذ عام ١٥٧٩م حيث كان لاستقرار سوسينوس Faustus Socinus الذى تحلَّق حوله الأتباع وعُرف تفكيرهم فى أوروبا بالتفكير السوسينى. وهو يعود فى الأصل إلى أسرة إيطالية هى أسرة Sozini وقد ذكر سوسينى فى كتبه التى نشرها أن المسيح لا يمكن أن يكون إلهًا على الحقيقة. وقد حوربت السوسينية بضراوة وتم إغلاق كليتهم التى افتتحوها فى بولندا وأجبرهم الكاثوليك على الرحيل فتشتتوا(٥٠) وفى إنجلترا كان يُحرم من الكنيسة كل من يعتنق هذه الأفكار كما صدر قرار بمنع جلب الكتب التى تحمل هذه الأفكار أو طبعها أو نشرها. هذا هو الموقف الرسمى من هذه الحركة فى كل أنحاء أوروبا طوال القرن السادس عشر وفى مطلع القرن السابع عشر للميلاد. وقد حاول سوسينوس التوفيق بين الفرق المتنازعة داخل الحركة المناهضة للتثليث. وأهم أعمال سوسينوس والتى توضح فكره، كتابه The Ra- covian Catechism الذى نشره سنة ١٦٠٥م(٥١) وكانت راكو Rakow فى بولندا هى مركز الحركة التى انتشرت انتشارا كبيرا، وأسس أصحابها مدرسة لهم ضمت فى وقت من الأوقات ألف طالب، كما أسسوا مطبعة وأنشأوا مجمعا كنسيا يحضره السوسينيون فى بولندا وترنسلفانيا يُعقد سنويا. وفى القرن

السابع عشر كان للحركة أتباع فى ألمانيا نفسها، وكانت جامعة التدروف Alt-drof University مركزا لنشاطهم العلمى. ولكن منذ ١٦٣٢م نشط الكاثوليك فى بولندا وأصبح لهم اليد العليا، خاصة بعد أن تولى الحكم الملك جون كازيمير John Casimir سنة ١٦٤٨م، وهو كاثوليكى يسوعى وكان كاردينالا فى الوقت نفسه فأجهز على السوسينيين وألغى مؤسساتهم، فهربوا إلى الأراضى المنخفضة وبروسيا(٥٢) وفى سنة ١٦٤٨م صدر تشريع برلمانى فى إنجلترا باعتبار أفكار السوسينيين جريمة كبرى(٥٣) ولم يعتبر مؤرخو الكنيسة الإنجليزية كنائس الحركات المناهضة للتثليث ضمن الكنائس الإنجليزية ولا حتى الكنائس المنفصلة عن الكنيسة الإنجليزية(٥٤) أى أنهم لم يعتبروهم مسيحيين على الإطلاق.

ويرجع بعض الباحثين أصول هذه الحركة للنهضة فى إيطاليا ممثلة فى إحياء التراث والعودة إلى المصادر والمنابع الأولى(٥٥) ويوجز واحد من الباحثين فى تاريخ الأديان الخطوط العامة لتفكير السوسينيين فيقول: إنهم يعتقدون أن المسيح (عليه السلام) إنسان مميز وغير عادى أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وهو نبى قدم لنا المعانى الحقيقية للتشريع والحياة الموعودة، وهم يؤمنون بمبدأ حرية الإرادة البشرية(٥٦).

ورغم انحسار المد السوسينى نتيجة التشريعات المناهضة لهم، وحل مؤسساتهم إلا أن بعض الباحثين يذكر أنهم كانوا يعقدون اجتماعات على نحو سرى، والتحق عدد منهم بالكنائس الكلفنية وراحوا يبثون عقائدهم سرا وبحذر شديد(٥٧).

ورغم قمع هذه الحركة فقد ظلت الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية تخشى من انتشار أفكارها. لذلك بدأ بالنص على فكرة التثليث بعد ذلك فى أسماء

التجمعات الكنسية وركزت الجهود الكنسية نشاطها بين المسيحيين التابعين للدولة العثمانية(٥٨) وظل هذا واضحا حتى القرن الثامن عشر(٥٩) بل والقرن التاسع عشر. ففى سنة ١٨٠٧م تم إنشاء كاتدرائية الثالوث الأقدس Holy Trinity Cathedral وكان فونتو Battista Fonto Giovanni يتخذ من اسطنبول مقرا دائما ويعمل بحرية شبه كاملة بين كاثوليك الدولة العثمانية(٦٠).

ورغم كل هذه الاحتياطات التى اتخذتها كنائس أوروبا ضد الأفكار السوسينية، فإنها لم تندثر، فقد اعتنق المفكرون الإنجليز: جون بدل (١٦١٦ - ١٦٦٢م)(٦١) وجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م)(٦٢) وبرستلى (١٧٣٣ - ١٨٠٤م)(٦٣) وبلشام (١٧٥٠ - ١٨٢٩م)(٦٤) أفكارا لاتبتعد كثيرا عن أفكار السوسينية.

وإذا كانت حركة الإصلاح الدينى التى قادها مارتن لوثر ورفاقه فى القرن السادس عشر، كانت فيما يرى لامبرت امتدادا لما كان يسمي بحركات الهرطقة فى العصور الوسطى(٦٥) فهل يمكننا القول إن الحركة المناهضة للتثليث ستتمخض عن حركة إصلاح جديدة فى المسيحية؟ هذا ما ستبديه الأيام.

كلمة أخيرة

لقد كان القرن السادس عشر هو قرن تفجر الصراعات الدينية فى أوروبا، لذا كان من الطبيعى أن تظهر الحركة المناهضة للتثليث بمثل هذه القوة فى هذا القرن بالذات، رغم وجود جذور لها فى المسيحية. فالإسلام يقدم المسيحية من خلال القرآن الكريم على أنها ديانة توحيد، وأن ما اعتراها من فساد كان نتيجة الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليبتغوا به ثمنا قليلا. كما شهد تاريخ المسيحية الباكر خلافات مذهبية حادة حول طبيعة المسيح عليه السلام، لا تزال أصداؤها حتي اليوم، ولعل أشهر هذه الخلافات الأولى تلك التى كانت بين آريوس وأثناسيوس، لكننا بصدد بحث تاريخى فى المقام الأول كما أن تفاصيل ما حدث فى القرون الأولى للمسيحية تخرج عن نطاق هذا البحث.

فإذا ما عدنا للتحليل الاجتماعى للبيئة الأوروبية لمعرفة مبررات ظهور هذه الحركة المناهضة للتثليث، بمثل هذا التجلى والوضوح فى هذا القرن بالذات، فإننا نجد عدة عوامل قد تقدم لنا بعض التفسير لذلك:

أولا: أن النهضة الأوروبية كانت . فى كثير من جوانبها . مراجعة للأفكار التى كانت مألوفة وسائدة فى مختلف مجالات الحياة، فقد تأكد الأوروبيون على سبيل المثال من كروية الأرض بعد تمام رحلة ماجلان ١٥٢٢م، وكانت هذه الفكرة تحاربها الكنيسة الكاثوليكية، وثبت أن الأرض هى التى تدور حول نفسها فينشأ عن دورانها الليل والنهار، وما هكذا كانت تقول الكنيسة. كل هذا ومثله كثير جعل الأوروبيين يعيدون التفكير فى أمور كانت تبدو فى وقت من الأوقات فى حكم المسلمات. ولم يكن الإنجيل استثناء من هذه القاعدة، فقد وجدنا إرازم كما أشرنا فى هذا البحث يعود للنُسخ الإنجيلية القديمة غير مكتف بالنسخة التى اعتمدتها الكنيسة، ووجدنا ترجمات جديدة للإنجيل كثر عددها وفهم منها مارتن لوثر على سبيل المثال فى مرحلة من مراحل تفكيره تحريم الربا، وفهم منها أوشينو جواز تعدد الزوجات. فلم يكن بدعا إذن أن يظهر من يفهموا منها خرافة التثليث. وقد أفاضت الكتب الأجنبية والعربية التى تناولت تاريخ أوروبا الحديث منذ عصر النهضة فى الحديث عن التحرر الفكرى وانتشار مبدأ أفكر لأعتقد، وليس العكس بمعنى أعتقد لأفكر، وظهور حركة إحياء العلوم وتطور الروح الفردية وما إلى ذلك. كل هذا وغيره هيأ ومهد لظهور حركات إصلاحية دينية. وإذا كان الأوروبيون ينظرون لحركة لوثر كحركة إصلاح دينى، وإلى الحركة المناهضة للتثليث كحركة دينية يصفونها بالكفر والهرطقة ويضعونها فى مكان أقل أهمية من الناحية الدينية فمن السخرية أن ننظر نحن المسلمون لهذه الحركة نظرتهم نفسها إليها.

ثانياً: أنه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر، والقارة الأوروبية كلها عُرضة لتأثيرات إسلامية واضحة، فى مختلف المجالات لم تحظ بدراسة كافية، فقد وجدنا لورد أكتون يقرر بوضوح أن التاريخ الأوروبى الحديث يبدأ تحت مطارق العثمانيين(٦٦) وقد أظهرت الوثائق الأوروبية التى راجع الكثير منها بعض الباحثين الأوروبيين أن كثيرا من المناطق الأوروبية كانت تستنجد بالعثمانيين إذ كان يطلب أهلها بأنفسهم الفتح العثمانى تخلصا من حكم مسيحيين يخالفونهم فى المذهب، أو مسيحيين يسومونهم سوء العذاب، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أهل كريت توسلوا إلى العثمانيين لفتح ديارهم، كما يؤكد ذلك الباحث الغربى كولز(٦٧) كما نظر أهل المورة للعثمانيين كمخلِّصين، بعد أن سئموا سيطرة البنادقة الكاثوليك. وقد كان وصول العثمانيين لساحل دلماشيا واستقرارهم فيه منذ القرن الخامس عشر، حدثا جللا أثر على سائر أنحاء أوروبا(٦٨).

وكانت أوروبا كلها منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر، وربما بعد ذلك تتابع الصراع بين المسلمين والكاثوليك، فى البحر المتوسط خاصة، مع اختلاف وجهات نظرهم إزاء هذا الصراع بطبيعة الحال. فبينما كان عدد من البروتستنت (بعد ظهور البروتستنتية) يرى فى إسبانيا الكاثوليكية حامية للمسيحية بمذاهبها المختلفة، أو على الأقل لا يتمنى هزيمتها أمام العثمانيين، ومجاهدى البحر المتوسط. كان هناك عدد آخر من البروتستنت يرى فى الصراع بين المسلمين والكاثوليك الإسبان، صراعا بين شيطانين، ويتمنى أن يذهب كلاهما - المسلمون والكاثوليك - إلى حيث لا عودة(٦٩) وفى وقت من الأوقات كان البروتستنت يجدون فى مناطق أوروبا الشرقية الخاضعة للعثمانيين ملجأ وملاذا لهم هروبا من الاضطهاد الدينى(٧٠)

فإذا ما تركنا شرق أوروبا وانتقلنا إلى غربها، وجدنا حقائق أخرى مذهلة، أثبتتها الوثائق التى كشف عنها الباحثون الغربيون، وهى أن الشعب الإسبانى كان معارضا لإخراج المسلمين بعد سقوط غرناطة، وأن أصحاب الأراضى والأعمال ظلوا متمسكين بالعاملين المسلمين لديهم، حتى مطلع القرن السابع عشر، وأن طرد المسلمين كان عملا كنسيا خالصا، وأن الشعب الإسبانى كان متعاطفا فقط مع إخراج اليهود لاشتغالهم بالربا وامتصاصهم دماء الشعب الإسبانى(٧١) ويهمنا فى هذا الصدد أن عددا كبيرا من المسلمين الإسبان قد خرجوا عبر البرانس إلى الأراضى الفرنسية ولاقوا فى سفرهم هذا نصبا(٧٢)، وقد تمركزوا فى سواحل فرنسا الجنوبية حيث رحلوا بعد ذلك إلى الشمال الإفريقى، وانضم عدد كبير منهم إلى حركة مجاهدى البحر المتوسط.

أبقى بعد هذا شك فى أن أوروبا فى مطلع العصور الحديثة لابد أن تكون قد تأثرت بالفكر الإسلامى، أو على الأقل اطلعت عليه، بشكل أكثر وضوحا؟ فقد غدا الإسلام بالنسبة لأوروبا بعد سقوط القسطنطينية وتمركز المسلمين فى شرق أوروبا، أقرب إليها من حبل الوريد، كما أن طبيعة العصر أتاحت لأكبر عدد ممكن من الباحثين والمثقفين، بل والناس العاديين، معرفة أمور عن الإسلام، ما كانت لتتاح لهم معرفتها قبل ذلك. كل هذا يجعلنا لا نستبعد وجود تأثيرات إسلامية على الحركات الإصلاحية الدينية الأوروبية عامة، والحركة الأوروبية المناهضة للتثليث خاصة.

بقى القول إن أحد الباحثين العرب المتخصصين فى تاريخ أوروبا الحديث قد أشار إلى وجوب أن يكتب التاريخ الأوروبى الحديث من وجهة نظر إسلامية عربية(٧٣) تماما كما يكتب الأوروبيون تاريخنا الإسلامى من وجهة نظرهم. فمن غير المنطقى أن نسمى بالهرطقة ما يسمونه هرطقة ففى هذا تبعية، وبُعد عن

الأصالة. ولو أخذنا بهذا المنطق، لباركنا حركة الاستعمار لأنهم يباركونها، ولأسمينا المسلمين الأوروبيين كفرة لأنهم يسمونهم كذلك، فهذا البحث رغم تواضعه دعوة للأصالة فى كتابة التاريخ.

ملحق (١)

قرار الاتهام الذى ألقى على مسامع Servetus قبيل إحراقه بلحظات

We condemn Thee, Migul Servetus, to be conveyed in bonds to champel, there to be burned alive, and with thee the manuscript of thy book and the printed volume, until thy body is consumed to ashes. Thus Shalt thou end thy days, as a warning to all others who might wish to repeat thine offence

Stefan Zweig, Erasmas and the Right to Heresy (London: Souvenir Press, 1979), p. 289.

ملحق رقم (٢)

فقرات من خطاب أرسله Melanchthon إلى كلفن سنة ١٥٥٤م

"... I have read the Writing in Which you have refuted the detestable blasphemies of Servtus, and I return thanks to the son of God who was arbiter of your combat. To you also, the church owes, and will in the future owe, gratitude. I am in entire agreement with your judgement. I affirm also that your Majistracy has acted Justly in putting this blasphemer to death after a regular trial.

المصدر Leonard W. Cowie, the Reformation of the Sixteenth Century (London: Wayland published, 1972), p. 43.

هوامش المبحث الرابع

(١) التوحيد هو المقابل العربى للكلمة الإنجليزية Unitarianism وهى مشتقة من الكلمة اللاتينية Unitarius، والموحد Unitarian هو القائل بأفكار التوحيد. والموحدون Unitarians هم أفراد طائفة مسيحية ترفض التثليث Trinity. وفى دائرة معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion and Ethics، ورد أن التوحيد فى الفكر المسيحى يعنى الدلالة على الأفكار والتنظيمات الدينية المسيحية التى قالت أساسا بالطبيعة الواحدة لله single personality of Diety مما يناقض العقائد الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتية لهذا فالأورثوذكس والكاثوليك والبروتستنت يعتبرون هؤلاء المناهضين للتثليث هراطقة. وتسمى حركتهم فى مراجع التاريخ الأوروبى باسم حركة الهرطقة. أما عقيدة التثليث فرغم أنها أساس العبادة فى كنيسة روما وغيرها من الكنائس إلا أن المصطلح نفسه Trinitarianism قد استخدمه للمرة الأولى سيرفيتوس Servetus سنة ١٥٤٦م وهو - أى المصطلح - يعنى المؤمنين بالثالوث الأقدس (الأب والابن والروح القدس) J. E. Carpenter, "Unitarianism", Encyclopedia of Religion and Ehics. وكان يطلق على الحركة المناهضة للتثليث أحيانا اسم الحركة الأريوسية أو الهرطقة الأريوسية نسبة إلى آريوس الذى لم يجعل المسيح عليه السلام إلها البتة. Y. S. Chishti, What is Christianity (Karach: World Federation of Islamic Missions, 1070) pp. 31- 32 وقد نقل ششتى هذا عن الدكتور بكنيل Bucknell

(٢) Stefan Zweig, Erasmus and the Right to Heresy, translated by Eden and Cedar Paul (London: Souvenir Press, 1979), p. 64

وقد كانت أول طبعة لهذا الكتاب فى النمسا سنة ١٩٣٤م ، تحت عنوان Triumph and Tragik des Erasmus Von Rotterdom ثم نشر بعنوان «حق الهرطقة» The Right to Heresy فى لندن فى العام نفسه (١٩٣٤م) وأعيد طبعه سنة ١٩٣٦م، وسنة ١٩٥١م. والطبعة التى رجعت إليها هى طبعة Souvenir Press وقد قارنتها بطبعة ١٩٥١م فلم أجد بينهما فرقا سوى أن الأخيرة أجود طبعا.

(٣) Carpenter, "Unitarianism"

(٤) Zweig, pp. 38, 63 - 64

(٥) Ibid., pp. 64 - 65

(٦) ميلانشتون ساعد مارتن لوثر الأيمن.

(٧) R. Wallace, Antirinitarian Biography (London, 1850), II, 139

(٨) Zweig, p. 257.

(٩) G. Moore, History of Religion (Edinburgh: Clark, 1965), I, 337 -37

(١٠) Stephen Neill, Christian Faith and Other Faiths (Oxford: University Press, 1970), pp. 369 - 70

(١١) Ozment, pp. 258, 261

(١٢) Ibid., pp. 258 - 62

(١٣) Ibid., pp. 262-63

(١٤) Ibid., pp. 281 - 90

(١٥) T. H. L. Parker, John Calvin (Philadelphia: Westminster Press, 1975) ولا يخرج ما ذكره باركر عما ذكرته المراجع الأخرى.

(١٦) J. Lesile Dunstan, protestantism, Great Religions of Modern Man (Washington Square press, 1962), p. 21

(١٧) S.A. Nigosian, World Religions (London: Sheldon Press,

1976), p. 95.

(١٨) Geoffrey Parrinder, Comparative Religion (London: Sheldon Press, 1976), p. 95

(١٩) "Servetus", Encyclopedia Britannica

(٢٠) Ibid

(٢١) القرآن الكريم، راجع الآيات الكريمة ١١٦ و ١١٧ فى سورة المائدة و ٥٩ فى سورة آل عمران، وذلك على سبيل المثال.

(٢٢) Moore, p. 337.

(٢٣) Ibid.

(٢٤) والنص الذى أورده مـــور هـو: "De Trinitate Divina, quod ea non sit in-visibilium Trium rerum illusio, sed Verae Substantiae Dei man-ifestatio in verbe et Communication in spititu"

(٢٥) L. Cowie, The Reformation of the Sixteenth Century (Lonon: Wayland, 1972) , p. 42, K. Bainton, Hunted Heretic, the Life and Death of Michael Servetus 151- 1553 (Boston: Beacon Press, 1960), pp. 46 - 48.

(٢٦) Bainton, p. 49.

(٢٧) S. Ozment, The Age of Reform 1250- 1550 (London: Yaie University Press, 1980), p. 369.

(٢٨) Hans Kunig, On Being a Christian (London: Collins, 1968), p. 476.

(٢٨) Hans Kuning, On Being a Christian (London: Collins, 1968), p. 476.

(٢٩) Moore, p. 164, Neill, p. 66.

(٣٠) Zweig, p. 224, Ozment, p. 371. وقد ترجم كتاب Castellio الذى ألفه ١٥٥٢م، وتلك هى بياناته البليوجرافية:
On Heretics: Whether They should be Punished by the Sword of

the Magistrate, Trans. Ronald (New York: Bainton, 1965) cf. also photoreprint of latin original, ed. Sape van der woude (Geneva, 1954).

(٢١) McNeill, The History & Character of Calvinism (New York, 1957), p. 176, J. Lecler, Toleration and the Reformation (N. Y. 1960), pp. 325 - 46.

(٢٢) Zeweig, p. 224.

(٢٣) Ibid., p. 224.

(٢٤) G. Brandt, The History of the Reformation (London, 1979), I, 37.

(٢٥) Brandt, I, 66-67

(٢٦) Ibid., I, 84.

(٢٧) Ibid., i, 93.

(٢٨) Ibid., I, 93 - 4

(٢٩) Ibid., I, 91.

(٤٠) Ibid., I, 57, W. th. M. Frijhoff, "Official and Popular Religion in Christianity, the Late Middle Ages and Early Modern Times (13th - 18th Centuries)" in Official and Popular Religon, Analysis of a Theme for Religious Studies (New York: Mouton Publishers, 1979), pp. 92 - 3

(٤١) Zweig, p. 363.

(٤٢) Ibid., pp. 363 -64

(٤٣) Pierre Jamelle, The Catholic Reformation (London: Bruce Publishing Company, 1963) p. 55.

(٤٤) Janelle, pp. 55-6

(٤٥) C. Cross, Church and People 1450-1660 (London: Collins, 1976). p. 85. M. Loane, Masters of the English Reformation (Lon-

don: Hodder, 1954), p.205.

(٤٦) Carpenter, "Unitarianism", p. 520.

(٤٧) Ibid.

(٤٨) Burnet Gilbert, History of the Information of the Church of England (Oxford, 1829), p. 229.

(٤٩) Carpenter, "Unitarianism", pp. 520- 21.

(٥٠) Ibid., p. 522, Murray Tolmie, The Triumph of Saints, the Separate Churches of London 1616 - 1649 (Cambridge: University Press, 1977), p. 134.

(٥١) Moore, p. 339.

(٥٢) Ibid., pp. 338 - 39

(٥٣) Ibid., p. 340.

(٥٤) راجع قائمة بالكنائس الإنجليزية المنفصلة بلندن فى: Tolmie, p. 245.

(٥٥) Moore, p. 340.

(٥٦) Ibid., p. 341.

(٥٧) Ibid, p. 338

(٥٨) Charles A. Fraizee, Catholics and Sultans (Cambridg: University Press, 1983), pp. 145, 165.

(٥٩) Fraizee, p. 165.

(٦٠) Ibid., p. 223.

(٦١) جـون بدل Beddle وصل أكسفورد سنة ١٦٣٤م. حصل على درجة الماجستير فى الآداب سنة ١٦٤١م وعين فى مدرسة أبرشية سانت مارى. شك فى التثليث. سجن وأطلق سراحه سنة ١٦٥٢م وزاد تحررا فى معتقده عن السوسينيين أنفسهم، مات سنة ١٦٦٢م، Carpenter "Unitarianism"

(٦٢) جون لوك Locke: نشر فى ١٦٩٥م كتابه الشهير: «الأسس العقلية للمسيحية» The Reasona - bleness of Christianity وقبل ذلك نشر فى الفترة من ١٦٨٩م إلى

١٦٩٢م رسائل بعنوان: Locke's Letters Concerning Toleration وقد أثار فى كتبه مسألة منهجية خطيرة إذ كان يرى أن طبيعة المسيحية ومبادئها الأساسية تم استقاؤها من كتب مجهولة المؤلف، وانتهى إلى نوع من الآريوسية Carpenter, "Unitarianism".

(٦٣) برستلى Priestly: كان كلفنيا ثم أصبح آريوسيا حاربه البرلمان الإنجليزى وطردته الكنيسة.

(٦٤) بلشام Belsham: عين فى كلية Hackney وفى ١٧٩١م، كون جمعية الموحدين لتطوير العقائد والممارسات المسيحية عن طريق توزيع الكتب، Carpenter, "Unitarianism" pp. 520- 25.

(٦٥) Malcom Lambert, Medieveal Heresy Popular Movements from Bogomil to Huss (London: Edward Arnold, 1977), pp. 335-39

(٦٦) Paul Coles, The Ottoman Impact on Europe (London: Thames & Hudson, 1968), p. 7.

(٦٧) Coles, p. II

(٦٨) Jan Morris, The Venecian Empire (London: Faber & Faber, 1890), p. 8.

(٦٩) Coles, pp. 149 - 50

(٧٠) Ibid., pp. 150 - 51.

(٧١) Henry Lea, The Moriscos of Spain, their Conversion & Expulsion (Philadelphia: Lea Brothers, 1901), p.II. Jan Read, The Moors of Spain & Portugal (London: Faber &Faber, 1974), passim.

(٧٢) Lea, pp, 340 -41

(٧٣) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ط٢ (القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م)، جـ١:

المصادر والمراجع

Allen, J. H. The Unitarians in History.
Baillie, Robert. Anabaptism, In True Fountaine of independency. 1646.
Bainton, Ronald H. Hunted Heretic: the Life and Death of Michael Servetus 1511 - 1553. Boston, 1960.
Barbonel. A Discours Tending to Prove the Baptisme. 1942
Baxter, Richard Plain Scripture Proof of Infants Churchmemhership and Baptism. 1651.
Bouquet, A. C. Comparative Religion. London: Penguin, 1962.
Barandt, Geeraert, The History of the Reformation and Other Ecclesiastical Transactions in and about the Low Countries, from the Beginning of the Eighth Century down to the Famous synod of Dort. (1720-23, rpt. London, 1979)
Bucknell. The Thirty - nine Articles of the Church of England. London, 1952.
Chishti, Yousuf Sallem. What is Christianity . Karachi: World Federation of Islamic Missions, 1970.

Coles, Paul The Ottoman Impact on Europe. London: Thames, 1968
Cowie, Leonard W. The Reformation of the Sixteenth Century. London: Wayland Publishers, 1972.
Cross, Claire Church and People 1450 - 1660, the Triumph of the Laity in the English Church. London: Collins, 1976
Dunstan, J. Leslie. Protestantism. Washington: Washington Square Press, 1962.
Frazee, Charles A. Catholics and Sultans, the Church and the Ottoman Empire. London: Cambridge University Press, 1983.

المؤلف شارلز فريزى أستاذ للتاريخ بجامعة كاليفورنيا

Friedman, Jerome. Michael Servetus: ACase Study in Total Heresy. Geneva, 1978.
Firjhoff, W. Th. M. "Official and Popular Religion in Christianity, " in Official and popular Religion. New York: Mouton Publishers, 1979.
Gilbert, Burnet History of the Reformation of the Church of England London, 1979- 1981, rev. ed. Oxford, 1829.
Gordon, A. Heads of English Unitarian History, London, 1895.
Janelle, Pierre The Catholic Reformation. London: Bruce Publishing Company, 1963.
Kitcop, Thomas. AShort Treatise of Baptisme. 1642.
Kung, Hans. On Being achristian. Trans. Edward Quinn. London: Collins, 1968.
Loane, Marcus. Masters of the English Reformation. London: Hodder and Stoughton, 1954.
Lambert, Malcolm. Medieval Heresy, Popular Movements from Bogmoil to Hus. London: Edward Arnold, 1977.
Lea, Henry. The Moriscos of Spain. Philadelphia: Lea Brothers, 1901.
Lecler, Joseph. Toleration & the Reformation. New York, 1960.
Lumpkin, William L. Baptist Confessions of Faith. Philadelphia, 1959.
Moore, George Foot. History of Religions. Edinburgh: Clark, 1965.

Morris, Jan. The Venician Empire. London: Faber, 1980.
McNeill. The History & Character of Calvinism. New York, 1957.
Neil, Stephen. Christian Faith and Other Faiths, The Christian Dialogue with Other Religions. Oxford: University Press, 1970
Nigosian, S. A. World Religions: London: Edward Arnold, 1975.
Ozment, Stevan. The Age of Reform 1250 - 1550, an Intllectal & Religious History of Late Medieval & Reformation Europe. London: Yale University Press. 1980.
Paeker, T. H. L. John'Calvin, Abiography. Philadelphia: Westminster Press, 1975.
Parrinder, Geoffrey. Comparative Religion. London: Sheldon Press, 1976.
Potter, G. R.Zwingli. Cambridge: Cambridge University Press, 1976.
Taylor, J. J. Retrospect of the Religious Life of England. Edited by James Martineau. 1976.
Tolmine. The Triumph of the Saints, the Separate Churches of London Cambridge: Cambridge University Press, 1977.
Wallace, R. Antirinitarian Biography, London, 1850.
Whitely, W. T., ed Debate of Infant Baptism. 1643.
Zweig, Stefan. Erasmus and Right to Heresy. London: Souvenir Press, 1979.

مستخلص البحث باللغة الإنجليزية:

The Anti - Trinity movement is a very important, but neglected, reformation, in modern European history. The Anti - Trinitarians or the Unitarians were oppressed by both Protestants and Catholics. The Unitarians were many sects, but their ideas were as a whole, that Jesus Christ is merely aProphet or abnormal person and that the Holy Ghost is not God. They also believed in the existence of one God, Creator of all the visible and invisible world. I refer to many European documents and resources to pursue the beginning, accidents and results of this movement.

المؤلف:

من أهم مؤلفاته: الصحابة، مجمع أديان حول الرسول (دار الشروق الدولية)، من عبقرية التشريع الإسلامي، دراسات أنثربولوجية مع ربط التشريع الإسلامي بالتشريعات السابقة عليه (دار الصابونى) القرابة بالرضاع (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، المدخل إلى علم التاريخ (دار المريخ)، علم التاريخ عند المسلمين (المكتب العزبي للمعارف)، التعليم والثقافة في غانا، حيازة الأرض في نيجيريا في القرن ١٩. (دار العلوم)

من أهم ترجماته المشفوعة بدراسات:

- مجموعة ترجمات الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر (حولي عشرين رحلة) سلسلة الألف كتاب الثاني.

- قصة الحضارة (عصر نابليون) لول ديورانت المجمع الثقافي/ أبو ظبي (٤ ج) والسجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك (مجلدين) (المجمع الثقافي في أبو ظبي)

اليهود عقائدهم وعباداتهم (الهيئة المصرية العامة للكتاب).. الخ

الفهرس

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية

عبدالمنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى -

الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٢٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg